الفصل الأول

مواقع الفاء وأسرارها

obeikan.com

عكس الظاهر فى الترتيب

قال سيبويه فى معرض التمييز بين الواو والفاء: «والفاء وهى تضم الشىء إلى الشىء، كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقًا بعضه فى إثر بعض، وذلك قولك: مررت بعمرو فزيد فخالد، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقْرُو أحدَهما بعد الآخر» (١).

وقال السيرافى فى شرح أبيات سيبويه: «الفاء التى للعطف من شأنها أن يكون المعنى الذى اشترك فيه المعطوف والمعطوف عليه حاصلا للمعطوف بعد حصوله للمعطوف عليه، بلا مهلة فصل، ويكون حصوله للثانى عقيب حصوله للأول، نحو قولك: زيد آتيك فمحدثك، أى يحصل الحديث من قِبَله بعد إتيانه بلا فصل، ولا يجوز أن يكون الحديث الذى أخبرت به عنه حصل قبل الإتيان، ولا فى الحال التى حصل فيها الإتيان، وإذا أردت أن تخبر عن شخص من الأشخاص بخبرين، هما حاصلان له فى حال واحدة، لم يجز أن تعطف أحدهما على الآخر بالفاء، لأنهما حصلا فى زمان واحد، والفاء توجب أن زمان أحدهما بعد زمان الآخر، فإن أدخلت الفاء فسد معنى الكلام» (٢).

غير أن القرآن فى كثير من نصوصه خالف ظاهر ما أوجبه النحاة من تقدم المعطوف عليه فى الوجود، فوقعت فيه الفاء عاطفة لما هو متقدم على المعطوف عليه حينا، ولما هو واقع معه فى آن واحد حينا آخر، فاضطر الكوفيون إلى القول بأن «الترتيب لا يلزم فيها، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**﴾ [الأعراف: ٤]. قالوا: فالبأس فى الوجود واقع قبل الإهلاك، وهو فى الآية مؤخر عنه» (٣).

---

(١) الكتاب ٤ / ٢١٧

(٢) شرح أبيات سيبويه ١/ ١٠٠

(٣) رصف المبانى ٤٤٠.

أما البصريون الذين يرون الترتيب معنى لا يتخلَّف فى الفاء، فإنهم يؤولون ذلك بأحد وجهين: إما بالتأول فى الفعل على سبيل التجوز بالمسبب عن السبب، وإما بالتأول فى الترتيب، وجعله ترتيبا لفظيا، أطلقوا عليه الترتيب فى الإخبار.

وبالرجوع إلى ما قاله الفراء -وهو إمام الكوفيين- نجده يذكر فى الآية عدة تأويلات يفسر بها وجه المخالفة، وكأنه يقرّ بأن الترتيب هو الأصل فى العطف بالفاء، وأن العدول عنه يحتاج إلى بيان السّر فيه «يقال: إنما أتاها البأس من قَبْل الإهلاك، فكيف تقدم الهلاك؟ قلت: لأن الهلاك والبأس يقعان معا، كما تقول: أعطيتنى فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله، إنما وقعا معا، فاستجيز ذلك، وإن شئت كان المعنى: وكم من قرية أهلكناها، فكان مجيء البأس قبل الإهلاك، فأضمرت كان. وإنما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى، ولا يكون فى الشروط التى خلفتها بمقدم معروف أن يقدم المؤخر أو يؤخر المقدم، مثل قولك: ضربته فبكى، وأعطيته فاستغنى، إلا أن تدع الحروف فى مواضعها. وقوله: أهلكناها فجاءها قد يكونان خبرا بالواو: أهلكناها وجاءها البأس بياتا»[1].

فى تساؤل الفراء وجوابه عليه، دليل على أن الترتيب هو الأصل، وإلا فما كان بحاجة إلى التأول، ثم إنه يعترف بأن للحروف خصائص، وللعطف بها شروطا توجب ألا يقدم المؤخر فى مثل قولك: ضربته فبكى، وأعطيته فاستغنى، وهو حين يقول أخيرا قد يكونان خبرا بالواو، فإنه لو سلم بصحة وقوع الواو موقعها فإن بابا ينفتح أمام الباحثين فى أسرار النظم، للكشف عن سر إيثار الفاء على الواو فى مثل هذه المواضع.

والوجه الأول فيما ذهب إليه الفراء قال الطبرى بمثله فى أكثر من موضع. ففى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [البقرة: ١١٧].

(١) معانى القرآن ١/ ٣٧١

قال أبو جعفر: «وإذا كان الأمر فى قوله جل ثناؤه: «وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» هو ما وصفنا من أن حال أمره الشىء بالوجود حالُ وجود المأمور بالوجود، فبيَّن بذلك أن الذى هو أولى بقوله: . .«فيكونُ» الرفع على العطف على قوله «يقول»، لأن القول والكون حالهما واحد، وهو نظير قول القائل: «تاب فلان فاهتدى» و«اهتدى فلان فتاب»، لأنه لا يكون تائبا إلا وهو مهتد، ولا مهتديا إلا وهو تائب، فكذلك لا يكون أن يكون الله آمرا شيئا بالوجود إلا وهو موجود، ولا موجود إلا وهو آمره بالوجود»[1].

لقد استلهم الطبرى أسرار قدرة الله تعالى، المُسَاوقة لإرادته فى إيجاد الأشياء، وتكوّنها حال إرادة الله لها أن تكون، لكنه لم يكشف عن دور الفاء فى سرعة استجابة الموجودات للأمر الإلهى، وإبراز طاعتها للآمر العظيم، وكأن وجودها ذاته إذعان لأمر موجدها، على ما صوَّره قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: ١١]. حيث دلتا بوجودهما على الإذعان لخالقهما.

إن الزمن يتلاشى فى أفعال القادر الحكيم، فلا يتصور أن يتخلل الزمن بين أمر القادر وفعْله، حتى نبحث عن ترتيب وجودى فى دلالة الفاء، وإنما هو ترتيب ذهنى، يتيح للمخاطب أن يتصور ترتب الموجود على إرادة الموجد، وليس ترتيبا خارجيا يقع فيه المكوَّن بعد أمره أن يكون. وتدل معه الفاء على الطواعية المطلقة والمسابقة إلى الانصياع لأمره. وهو نوع من الترتيب نبَّه إليه الجونفورى فى عبارات يُعَضُّ على مثلها بالنواجذ. قال رحمه الله: «ويجب أن تَنَبَّه أولا، لأن الترتيب قد يكون خارجيا، نحو: ﴿**فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ**﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧]. و ﴿**قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ [يونس: ٣٤] وقد لا يكون كذلك، فإما أن يكون بحسب الحكم القاطع من العقل، كما بين العلة والمعلول، وإن كانا مقارنين فى الوجود فى الخارج، نحو:

(١) تفسير الطبرى ٢/ ٥٤٩.

﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. أو بحسب اعتبار مناسب بين الأمرين، إما بلحاظ ذاتهما، أو وجودهما فى الخارج. كما بين الأدنى والأعلى، والأيسر والأصعب، أو باعتبار حصولهما فى الذهن، أو استحقاقهما الذكر فى اللفظ بين المجمل والمفصَّل.(١)

فى هذه الاعتبارات التى ذكرها الجونفورى تكمن أسرار النظم، وبها نتجاوز أقوال النحاة إلى إشارات أهل المعانى، نَعْبُر حدود الزمن، لننفذ إلى أعماق المتكلم، ونصغى إلى ما يهمس به من أغراض، ونَسْبُر أغوار المخاطب، لنرقب حركة فكره فى مواكبته لما يلقى عليه، وكيف تترتب المعانى فى ذهنه، على النحو الذى يربط فيه بين العلل ومعلولاتها، والمقدمات ونتائجها، فيقدم له المتكلم العلة على معلولها حينا، والمعلولَ على علته حينا آخر، طبقا لتشوُّفه وترقّبه، ويقدّم له المجمل على المفصل، لينتقل من النظرة الكلية إلى النظرة الجزئية الفاحصة، ويفاجئه بالنتيجة حينا ثالثا قبل ذكر مقدماتها، لتكون بمثابة الصدمة التى تنبه مراكز الإحساس عنده، فيتلقى الخبر بما يجب أن يتناسب مع خطره وأهميته. ثم ننظر إلى حال الخبر فى ذاته، حيث تترتب المعانى وفقا لوجودها الخارجى تارة، ولأهميتها فى سياقها تارة أخرى، وكل ذلك تُمليه دواعى الأحوال، وأغراض السياق، وذلك هو صميم البحث البلاغى، وبه ننطلق من المعانى الوضعية التى قررها النحاة لهذا الحرف وغيره، إلى معان أخرى مجازية هى فى كتاب الله الأَثْرى والأدَل على أسرار إعجازه.

وإذا كنا نسلم بأن الصورة التعبيرية ترجمة للحركة الذهنية والنفسية، تقوم الألفاظ فيها بدور الناقل لسبحات الفكر وخطرات النفس، على هيئة تتابعها فى نفس المنشىء وترتُّب أغراضه، أو على الهيئة التى يراد للمتلقى أن يتصورها عليها، فإن الفاء تؤدى دورها فى ترتيب المعانى طبقا لقصد المتكلم، أو مراعاة لحال مخاطبه، وحركة فكره فى تصوره للمعانى وربطه بينها.

(١) الفرائد فى شرح الفوائد ٢٤.

وللسهيلى عبارة جامعة هى أصل من أصول النقد، وأحرى بأن تتصدر كل حديث عن ترتيب الألفاظ والمعانى، قال فيها: «ما تقدم من الكلام فتقديمه فى اللسان على حسب تقديم المعانى فى الجنان، والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق من المعانى إلى الخلد والفكر، بأحد هذه الأسباب الخمسة، أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك» (١).

وبالرجوع إلى آية الأعراف فإننا يجب أن نسلم بأن تقديم الإهلاك على مجىء البأس خروج عن الظاهر فى الترتيب، وهو ما قرره ابن عطية بقوله: (وقوله «فجاءها» يقتضى ظاهره أن المجىء بعد الإهلاك. وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاء قد تجىء بمنزلة الواو، ولا تعطى رتبة. قال القاضى أبو محمد: وهذا ضعيف، وقيل: عبَّر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكى فى المشكل: مثل قوله: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ**﴾ [النحل: ٩٨]. قال القاضى أبو محمد: وهذا يحتج به فى تأويل من قال: الفاء فى هذه الآية لتعقيب القول. وقيل: المعنى أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق، فجاءها بأسنا بعد ذلك)(٢).

بعد استسقاط الوجه الأول الذى يلغى الفروق بين معانى الحروف، ويُسَوَّى بين الفاء والواو فى الدلالة، يبقى مما ذكره ابن عطية ثلاثة أوجه، وجهان يعودان إلى التأول فى الفعل، ووجه يتأول فى معنى الترتيب.

ولست أرى فى تأويل الإهلاك بالإرادة إلا محاولة لتصحيح معنى الترتيب الوجودى فى الفاء، لأن إرادة الفعل من الله تنجيز له، فإذا تعلقت إرادة الله بالشىء على سبيل الإيجاد، وقع مساوقا للإرادة، متزامنا معها دون تأخير. وقرْنُ إرادة الله التنجيزية بإرادة العبد السابقة لفعله، على النحو الذى تُضَمُّ فيه هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾ فيه سهو كبير، لأنه إذا

(١) نتائج الفكر ٢٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٧ /٨.

صح أن تؤول القراءة بإرادتها، لتقع الاستعاذة مترتبة عليها، مسبوقة بها، فإن ذلك لا يصح فى إرادة الله تعالى التى يصاحبها تحقيق المراد دون تأخير. وقد ردَّ بعض المحققين هذا الوجه فيما نقله الشهاب: «حيث قال: فيه إشكال أصولى، وهو أن الإرادة إذا كانت باعتبار تعلقها التنجيزى، فمجيء البأس مقارن لها، لا متعقب لها وبعدها، وإن لم يُرَدْ ذلك فهى قديمة، فإن كان البأس يعقبها لزم قدم العالم، فإن تأخر عنها لزم أن يعطف بثم» [(١)].

ثم إن نكتة التجوز بالمسبب عن السبب، كما صرحوا بها فى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾ وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾ [المائدة: ٦]. هى الحث على المبادرة بالقراءة والقيام عند العزم عليهما، حتى لا ينفك الفعل عن الإرادة[(٢)]، وهى لا تصح فى الآية. والوجه الثانى من التأول فى الفعل هو تفسير الإهلاك بالخذلان وعدم التوفيق، وهو تفسير اعتزالى لا يعتدّ بمثله أهل البيان.

وخير ما قيل فى تأول الفعل ما ذهب إليه الشهاب، «فالصواب أن يقال: معناه خلقنا فى أهلها الفسق والمخالفة»[(٣)] لأنه يتجاوب مع قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦]. فإطلاق المسبّب وإرادة السبب، تعبيرا بالإهلاك عن الفسق، فيه تحذير شديد من الوقوع فى المعاصى، وإيحاء بقوة العلاقة بين المعصية والهلكة، وشدة الارتباط والتلازم بينهما.

أما التأوّل فى معنى الترتيب بما أسْمَوْه الترتيب اللفظى، أو الإخبارى، فأحسب أنه ضرب من التجوز، يُشَبَّه فيه الترتُّب بين الألفاظ في الذكر، بالترتب بين المعاني في الوقوع، وتستعار له الفاء، لتدل على تقدم الأول فى المنزلة، أو علو الثانى في الرتبة. والآية صالحة لكليهما، فيكون تقديم الهلاك لأهميته،

(١) حاشية الشهاب ٤/ ١٤٩.
(٢) يراجع تفسير أبى السعود ٥/ ١٣٩، وروح المعانى ٦/ ٦٨
(٣) حاشية الشهاب ٤/ ١٤٩.

والتنبيه من أول الأمر على أن إرسال العذاب لم يكن بقصد الزجر والابتلاء، وإنما كان دليل غضب، وانتقام إبادة، لا يترك معه من باقية، وهو سر التعبير بالقرية دون أهلها، وكأن الله تعالى قد محاها من الوجود، فهو عذاب استئصال، لا تخويف وإنذار. وإلى هذا الوجه يلمح قول السهيلى: «دخلت الفاء لترتيب اللفظ، لأن الهلاك يجب تقديمه في الذكر» (١).

أو يكون تأخير المعطوف على سبيل التدرّج والارتقاء، لأنه بدلالته على الإهلاك المباغت فى أوقات الأمن والدعة، المعبَّر عنهما بالبيات والقيلولة، صار أشد وأفظع من الإهلاك، والفاء مستعارة للترتيب الرتبى، ولذلك حديث مفرد يأتيك قريبا.

ومما خولف فيه ظاهر الترتيب، قوله تعالى في وصف الكتاب المجيد: ﴿ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠٣]. فإن حلول العذاب بالمجرمين، المدلول عليه بقوله «فيأتيهم بغتة» لا يسبق في الوجود قولهم: «هل نحن منظرون»، لاستحالة أن يكون من الهالك قول بعد هلاكه، مما دفع الزمخشرى إلى القول بأن الترتيب فيه رتبي، ذكرت معه ألوان العذاب على سبيل التصعّد والارتقاء. قال جار الله: «ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته، وسؤال النَّظِرة فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب، فما هو أشد منها، وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه، وهو سؤالهم النَّظِرة، ومثل ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مَقَتَك الصالحون، فمقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، إنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيئ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشد من مقتهم، وهو مقت الله» (٢).

---

(١) نتائج الفكر ٢٥٠.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٩.

إن القول بالترتيب الرتبى تجوزا بفروق الزمن عن فوارق الدرجات والمنازل، هو أعظم مواقع الفاء فى الذكر الحكيم، وأمسُّها رحما بعلم البلاغة، وللزمخشرى فضل الكشف عنها، وتتبع مواطنها، وإن كان أقلها إقناعًا هذا الموضع، فإن النفس لا تستريح إلى كون سؤال النظرَة أشد من المفاجأة بالعذاب. وهذا ما جعل المرحوم عبد الرحمن تاج يردَّ ما قاله الزمخشرى، ذاهبًا إلى أن الترتيب جاء على حقيقته: (إن الفاء فى هذه الآيات من سورة الشعراء لم تغترب عن معناها الأصلى، الذى هو ترتيب المعطوف بها على المعطوف عليه فى الوجود، والأمر فيه ظاهر وقريب، ولا موجب للعدول عنه. وذلك أن الآيات تريد أن تقول: إن أولئك الكفار لا يؤمنون بالقرآن حتى يروا ما يلجئهم إلى الإيمان به، وهو بوادر العذاب ومقدماته، هذه المقدمات التى يعقبها من غير تراخ، وبطريق المفاجأة والمباغتة نزول العذاب دفعة، فتدركهم حينئذ الحسرة والندامة على ما فرّطوا، ويتمنون لو أعيدوا إلى الدنيا ليؤمنوا، يقولون: هل نحن منظرون، وذلك أن نزول العذاب بهم بغتة، ليس معناه هلاكهم وموتهم فى لحظة، وأنهم لا يمهلون ليتحسروا على ما فرّطوا، ويتمنوا أن ينظروا، لا بل إن ذلك العذاب الذى يباغتهم قد تمتد بعض الوقت مدتهُ، وتستمر عليهم زمنًا ما شدّتُه، وفى هذه الفترة يمكن أن تكون الحسرة، ويكون سؤال النظرة)[1].

وأرى -والله أعلم- أن قوله تعالى: ﴿**فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ**﴾ معطوف على قوله: ﴿**حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾ وما عطف عليه، فيكون سؤالهم النظرة أعقب رؤيتهم العذاب، ولا يمنع من ذلك أن يكون قد عطف على الجملة الأولى جملة أخرى تابعة لها، فهو من عطف جملة على مجموعة من الجمل، كما ذهب إلى ذلك الإمام عبد القاهر فى قول المتنبى:

تولوّا بغتة فكأنّ بَيْنًا ... تهَيَّبنى ففاجأنى اغتيالا

فكان مسير عِيسهُمُ ذَمِيلا ... وسير الدمع إثرهم انهمالا

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ١٦٤.

حيث جعل قوله (فكان مسير عيسهم. .) معطوفًا على (تولوا بغتة) لا على جملة (ففاجأنى اغتيالا) حتى لا يفسد المعنى بدخول المعطوف فى معنى (كأن)[1].

ويكون الغرض من تقدم جملة (فيأتيهم بغتة) على قولهم، تيئيسهم مما تمنوه، واستهانة بما قالوه، وقطع الأطماع فى الاستجابة لما حدَّثوا به أنفسهم، فكان ذكر حلول العذاب بهم قبل ذكر ما تمنوه، إيماء إلى أن مثل هذا القول مما لا يُعتدُّ به، ولا يرجى لصاحبه نفع، لوقوعه بعد فوات الأوان، كما أن تأخر قولهم هذا فى الذكر، يوحى بأنهم كانوا يرددونه منذ رؤيتهم العذاب حتى لفظوا آخر أنفاسهم، وتقطَّعت بهم أسباب النجاة.

مثل هذا الذى نقول به فى عطف الجملة على مجموع جمل أو عكسه اقتفاءً لأثر الشيخ عبد القاهر قال به العيْنى فى قوله عليه السلام: (**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**)[2] قال الإمام العينى: (فإن قلت: الضلال متقدم على الإفتاء، فما معنى الفاء؟ قلت: المجموع المركب من الضلال والإضلال هو متعقب على الإفتاء، وإن كان الجزء الأول مقدمًا عليه، إذ الضلال الذى بعد الإفتاء، غير الضلال الذى قبله)[3].

وكأنى بالعينى -رحمه الله- يرى أن تصدُّر الجهال للفتوى، وترؤُّسهم القوم بغير مؤهلات الرئاسة ضلال، وفتواهم بغير علم يجمع بين الضلال والإضلال، فهم ضالون فيما أفتوا فيه، مضلون لغيرهم ممن يعمل بفتواهم، فلو قيل إن المعطوف بالفاء هو (ضلّوا) وحده، لما كان مرتَّبا على الإفتاء، لأنهم كانوا قبل ذلك فى ضلال، أما مع الإضلال فإن ذلك واقع بعد الإفتاء وبسببه.

قلت: إنه ليس بلازم فى قصّ الأحداث أن يقع ترتيب الإخبار بها على الوجه الذى وقعت عليه، فقد يعمد القاصّ إلى المخالفة فى الترتيب وبناء الأحداث،

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢٤٤.
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب العلم.
(٣) عمدة القارى ٢/ ٩٠.

بقصد التركيز على موضع العظة، أو التشويق والإثارة، فتقع الفاء مرتِّبة الأخبار ترتيبًا فكريًّا، تتعانق فيه الأحداث على وجه يحقق أغراض القصة وأهدافها، من أجل ذلك نجد القرآن فى القصص التى تكررت يعمد إلى التقديم والتأخير فى بنائها، تبعًا لاختلاف الأغراض من قصّها فى موضعها، وحينئذ يكون من التطاول القول بأن القرآن تناقض فى عرض أحداثه، ومن التساهل أن يقال إنه من الافتنان فى العرض، بل علينا أن نلتمس وجه الترتيب مرتبطًا بأغراض السورة ومقاصدها، فإذا وقعت الفاء فى موضع ترتبت فيه المعطوفات ترتيبًا وجوديًّا، وفى موضع مشابه خولف هذا الترتيب، وجب علينا أن نتلمس وجه المخالفة بالإصغاء إلى همس السياق وما توسوس به الأغراض.

فهذا القرآن يحكى قصة صالح عليه السلام مع قومه فى سورة الأعراف فيقول: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٧٣- ٧٩].

فقدّم هلاكهم بالرَّجْفة على تولّيه عنهم، وقوله لهم ما قال، وظاهر الترتيب أن يقدّم ما أخَّره، لأن خطابه لقومه لا يقع بعد أن هلكوا وأصبحوا فى ديارهم جاثمين، فخالفت الفاء ما وضعت له من ترتيب المتعاطفات ترتيبًا وجوديًّا.

وفى سورة هود خولف هذا النسق، فقدَّم القول على الهلاك، فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦١- ٦٧] فجاء قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ مرتبًا على عقرهم الناقة، وسابقًا لهلاكهم بالصيحة، وهذا هو الأصل فى الترتيب الزمانى، كما وقعت عليه أحداث القصة.

وقد اختلف المفسرون فى بيان سر مخالفة الظاهر فى سورة الأعراف، وأوجزَ الجملُ فى حاشيته هذه الآراء، فقال: (وفى وقت هذا التولى قولان: أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا، ويدل عليه قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فتولى عنهم، والفاء للتعقيب، فيدل على أنه جعل هذا التولى بعد جثومهم، وهو موتهم.

والقول الثانى: أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم. ويدل عليه أنه خاطبهم بقوله: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء، فعلى هذا القول يحتمل أن يكون فى الآية تقديم وتأخير، تقديره: فتولى عنهم، وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا

فى دارهم جاثمين. وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا بأنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخًا وتقريعًا، كما خاطب النبى ﷺ الكفار من قتلى بدر)[1].

وبالتأمل فى سياق القصة من سورة الأعراف نجد أنها بدأت بخطاب صالح لقومه، دعاهم فيه إلى الله تعالى، وقدم إليهم معجزته المتمثلة فى (ناقة الله)، وحذَّرهم من أن يمسُّوها بسوء، ثم انتهى خطابه عند هذا الحدّ، ولم يدُرْ بينه وبينهم حوار، كما هو الشأن فى سورة هود، ليتغيَّر مجرى الحديث، ويدور الحوار بين المستكبرين والمستضعفين، يُنهيه المستكبرون بعقر الناقة، والتوجه بخطابهم إلى صالح، الذى لم يكن طرفًا فى الحوار، قائلين: (يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فكان جواب الله العملى أسرع من جواب صالح، ردّا على تحدّيهم لله بعقرهم ناقته، واستخفافهم بعذابه، ليحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

إن تخلُّل أى حديث بين استعجالهم العذاب استخفافًا، ووقوع ما استعجلوه يقطع هذا الخيط الفكرى، الذى يربط به طلبهم العذاب، وحلوله بهم، ويذهب بما يومئ إليه الترتيب من سرعة انتقام الله تعالى بالمستهزئين بعد أن قطعوا كل أسباب الحوار، حتى لو كان قد وقع تولّى صالح وما أعذر به إلى قومه قبل هلاكهم، فإن ترتيب حلول العذاب على فعلهم وقولهم، ربطًا بين الأسباب ومسبباتها هو الأليق ببلاغة النظم.

على أنه لا مانع من أن يكون تولّى صالح وحديثه بعد وقوع الهلاك بقومه، فهو حديث نفس، استبدَّ بها الحزن والحسرة على ما صار إليه القوم، جرى على لسانه تعبيرًا عما يعتمل فى صدره، وليس بلازم أن يكون الخطاب للأحياء، فقد خاطب رسول الله ﷺ قتلى بدر بعد هلاكهم، وهو الوجه الذى استظهره الزمخشرى، وإن كان قد أجاز فى وجه أن يكون مؤخرًا من تقديم. قال جار الله: (الظاهر أنه كان مشاهدًا لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين تولى مُغتمٍّ متحسّر على ما فاته من إيمانهم، يتحزّن لهم)[2].

(١) الفتوحات الإلهية ٢/ ٢٦١.

(٢) الكشاف ٢/ ٩١.

إن القرآن حين يعدل فى بعض المواضع عن الترتيب الوجودى بالفاء، تحقيقًا لأغراض النظم، لا يخالف طرائق العرب، ولا يخرج عن سُنَنهم فى كلامهم. فهذا المساور بن هند، وهو شاعر مخضرم يصف فى قصيدة مطلعها:

أودى الشباب فما له مُتفقّر وفقدت أترابى فأين المغبر

- يصف - إعراض الغوانى عنه، فيقول:

ورأين شيخا قد تحنَّى صلبه يمشى فيُقْعى أو يُكِبُّ فيعثر

فيقدم الإكباب على العِثار، مع أن الأخير أسبق فى الوجود، وقد علق المرزوقى على ذلك بقوله: (وكان الواجب أن يقول: أو يعثُر فيُكبّ، لأن العثار قبل السقوط للوجه، لكنه لم يبال بتغيير الترتيب، لأمنه من الالتباس، وهذا دون ما يجىء فى كلامهم من القلب)[1].

هذا التعليل للخروج على الترتيب المألوف بالأمن من الالتباس، لا يرتفع إلى مستوى الكشف عن المعانى المخبوءة فى النفس، والتى أراد الشاعر أن يبثَّها فى نفس مخاطبه، من خلال تعمّده عكس الترتيب، فقد صار إلى حال انعكست فيها الأمور، وانقلب ذنَبُها رأسًا، وأدبرت عنه الغوانى من بعد إقبال، وعفْن لقاءه بعد أن كُنَّ يتحرقن شوقًا إليه، وتسرب الوهن إلى بدنه ونفسه، وتقدَّم ما كان متأخرًا، وتأخر ما كان متقدمًا، ولا يعبر عن هذا الانقلاب فى حياته وحيوات الناس من حوله، إلا أن يعكس ترتيب الألفاظ على لسانه، ليومىء إلى هذا الاختلال الذى يحس به، والتناقض بين أمسه ويومه على ما يتزاحم فى نفسه. ألا ترى إلى قوله قبل هذا البيت:

ورأين رأسى صار وجهًا كله إلاَّ قفاى ولحية ما تُضفر

كيف قدم لنا فيه صورة ساخرة لسقوط شعر رأسه، حتى صار وجها بلا رأس، مضيًّا إلى الغاية فى رسم الصورة المقلوبة لنفسه ومجتمعه.

(١) شرح ديوان الحماسة ١/ ٤٦.

ومما وقع فيه قلب الترتيب بالفاء، ما حكاه الله تعالى فى قصة المعراج: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ [النجم: ٥- ٩].

قال الفراء: (كأن المعنى: ثم تدلَّى فدنا، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدًا، أو كالواحد، قدَّمت أيهما شئت، فقلت: قد دنا فقرُب، وقرب فدنا، وشتمنى فأساء، وأساء فشتمنى، وقال الباطل، لأن الشتم والإساءة شىء واحد)[١].

هذا التعليل لتأخير التدلى مع كونه أحق بالتقديم غايته تصحيح العطف على الصورة التى جاء بها النظم، وهو فى سبيل ذلك لا يبالى أن يعطف الشىء على نفسه، لأن الفعلين فى نظره مترادفان، وهو ما لا يليق بالنظم الكريم.

وإذا كانت المعاجم قد ذكرت فى معانى التدلى: النزول من العلو، والقرب بعد علو، والتواضع، والإدلال[٢] فإن أنسب المعانى هنا هو النزول من العلو، ليتناغم مع قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ**﴾ ويكون المعنى على نزول جبريل ليدنو من الرسول عليه السلام. وكان ظاهر النسق يقتضى أن يقال: تدلى فدنا، لكن القرآن عدل إلى ما عليه النظم على سبيل القلب، كما نصّ عليه أبو البقاء، وعدّه من قلب العطف، قائلاً: (أى تدلى فدنا، لأنه بالتدلى مال إلى الدنوّ)[٣]. ولعل الغرض من هذا القلب هو الإشعار بأن هذا الحدث قد أحاطت به خوارق العادات، فهو يجرى فى عالم الغيب، حيث لا يمكن تصور وقائعه على قياس ما يجرى فى عالمنا، ولا يمكن إخضاعه للقوانين التى اعتدناها فى عالم الشهادة، إنه رمز للإعجاز فى الزمان والمكان والحدث، ولا غرابة فى أن تسبق الغايات الوسائل ويقع الدنو قبل التدلى، فى عالم يعجز العقل عن تصور حقائقه. المهم أن يكون سبق التدلى مشيرًا لأهميته فى إجلال النبى وتكريمه، حين يكون سعى جبريل إليه فى محاولة للتقرب منه تشريفًا وتعظيمًا لمن استضافته السماء فى هذه الليلة الكريمة.

(١) معانى القرآن ٣/ ٩٥.

(٢) ينظر لسان العرب مادة: دلا.

(٣) الكليات ٤/ ٧.

أما ما ذهب إليه المفسّرون من تفسير التدلى بتعلّق جبريل بالنبى عليه السلام كما تتدلّى الثمرة من أغصانها[1] فهو كذلك لا يعدو أن يكون محاولة متكلَّفة لتصحيح الترتيب فى الفاء، وإلا فما الغرض من هذا التصور العجيب لتعلق جبريل فى الهواء معتمدًا على الرسول عليه السلام؟ أفلا يتعارض هذا التعلق مع قوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) بحكم أن التعلق ملاصقةٌ لا قرب، فلا يكون حينئذ مجال لتقدير مسافة القرب بقوسين أو ما دونهما؟!

ومما خالف ظاهر الترتيب فى العطف بالفاء، قوله تعالى: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف: ٧٩].

فإرادة تعييب السفينة فى الحقيقة مترتبة على مجموع أمرين، هما: كون السفينة لمساكين، والخوف من اغتصاب الملك لها، إذ لولا هذا الخوف لكان عمل الخضر عليه السلام إضرارًا بالسفينة وأصحابها، وهو الأمر الذى خفى على موسى عليه السلام فاعترض عليه، وكان سببًا فى فراقه، ولو روعى أصل الترتيب، لقيل: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا، فأردت أن أعيبها، لكن النظم الحكيم عمد إلى تقديم إرادة العيب، بحيث تقع مترتبة على كون السفينة لمساكين، إشارة إلى أنه هو السبب الأصيل فى حرصه على تعييبها واستنقاذها من استيلاء الملك عليها، وإلا فإنه لم يفعل ذلك فى غير هذه السفينة، وهى معرضة مثلها للاغتصاب، فلو أخر المعطوف على الأصل من الترتيب لأوهم فى بادئ الأمر أن التعّييب مسبب عن صنيع الملك، وليس هو الأساس فى فعل الخضر عليه السلام، وذلك ما أحسن العلامة أبو السعود الوقوع عليه حين قال: (ولعل تفريع إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب، مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها، إذ هى المحتاجة إلى

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٢٨.

التـأويل، وللإيذان بأن الأقوى فى المـدارية، هو الأمر الأول، ولذلك لا يبـالى بتخليص سفن سائر الناس، مع تحقيق خوف الغصب فى حقهم أيضًا)[1].

ومن تقدم الغاية على الوسـيلة فيما عطف بالفاء قـوله تعالى فى حكاية دعاء إبراهيم عليـه السلام: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم: ٣٧].

لقد كان المقصد الأسنى من ذهاب إبراهيم عليه لسـلام إلى هذه البقعة المباركة من أرض الله، وإسكان ذريتـه بجـوار البيت المحـرم الذى رفع هو وإسـماعـيل قواعده، هو إحياؤه بالعبادة، وإقامة الصـلاة فيه، ولكى تتوافر ذريته على تحقيق هذه الغاية السامية، دعا إبـراهيم ربه أن يعطف إليهم قلوب خلقه، ويربط أفئدة العباد ببيتـه، ويسبغ على حراسه وسدنته من رزقه ما يعيـنهم على إقامة الشعائر فيه، لذلك جـاء ترتيب الألفاظ على غير الأصل من تقديم الأسـباب والوسائل على المسببات والغايات، إذ لو روعى ذلك لقـيل: فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهـم وارزقهـم من الثمـرات ليقـيموا الصـلاة، لكـنه خالف هذا النـسق حتـى لا ينشغـل من وكل الله إليهم أمر بـيته بالوسـائل عن الغايات، التى مـن أجلها عانت هذه الأسـرة ما عـانت، وحتى لا يربط آل إسـماعيل خـدمتهـم للبيت، وقيامـهم على أمره، بعرَض من أعراض الـدنيا، فهم أصحاب رسـالة يؤدونها، وإن ضاقت بهم سبـل العيش. هذا إلى جانب الإشارة إلى أن إخـلاصهم لبيت الله وتفانيهم فى الحرص عـلى إقامة الشعائر فيه، هو الذى يحـقق لهم ما ضمنه الله للمتقين من العيش الكريم، كما نطقت به الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) تفسير أبى السعود ٥/ ٢٣٨.

التفاوت الرُّتْبى وأسرار التجوز فيه

التفاوت الرتبى من أعظم مواقع الفاء، وأكثرها امتلاء بالمعانى والإشارات التى تغرى الباحث بالكشف عنها، واستجلاء أسرارها، وهو معنى افترعه الزمخشرى، وأكثر من تطبيقه على النصوص القرآنية فى حرفى التعقيب والمهلة، وسيتضح لك عند الحديث على (ثم) الفرق بين التفاوت الرتبى فى الحرفين.

ولعل الزمخشرى قد اهتدى فى قوله بالتفاوت الرتبى بإشارات لمن سبقه من العلماء، منها إشارة للراغب فى المفردات سنذكرها فى الحديث عن (ثم)، وإشارة نذكرها الآن للزجاج منقولة عن لسان العرب، فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]. قال الزجاج: (معنى دنا فتدلى واحد، لأن المعنى أنه قرب فتدلى، أى زاد فى القرب)[1] فكأن دخول الفاء بين لفظين متحدين معنى، يضفى على الثانى زيادة فى المعنى، بما يحقق لونا من التغاير يصح به العطف، فيكون ترقيا من دنوّ إلى دنوّ أشد منه، وإلا كان الترادف ودخول العاطف بين المترادفين عبثا يتنزه عن مثله كلام الفصحاء، فضلا عن الكلام المعجز.

• التفاوت بين المفردات

دلالة الفاء على التفاوت الرتبى من المعانى المجازية، التى يستعار فيها الترتب الزمانى للدلالة على التدرج فى الفضل والشرف، وهو مادرج عليه المفسرون تبعا للزمخشرى، لكن الشيخ الطاهر بن عاشور أضاف وجها آخر فى التجوز بها عن هذا المعنى، وهو أن تكون مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق والتقييد، فقال فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] (والفاء عاطفة (ما فوقها) على (بعوضة) أفادت تشريكهما فى ضرب المثل بهما، وحقها أن تفيد الترتيب والتعقيب، وإنما استعملت فى معنى التدرج فى الرتب،

(١) لسان العرب مادة دلا.

بين مفـاعيل (أن يضرب). ولا تفـيد أن ضرب المثل يكون بالبـعوضة، ويعقـبه ضربه بما فوقها، بل المراد بيان المثل بأنه البـعوضة، وما يتدرج فى مراتب القوة، زائدا عليها، درجة تلى درجة، فالفاء فى مـثل هذا مجاز مرسل علاقته الإطلاق عن القيد، لأن الفاء موضوعة للتعـقيب الذى هو اتصال خاص، فاستعملت فى مطلق الاتصال، أو هى مـستعارة للتـدرج، لأنه شبيـه بالتعقيب فى التـأخر فى التعقل، كما أن التعقيب تأخر فى الحصول)[1].

ولاشك أن حمل المجاز على الاسـتعارة فى معنى الحـرف هو القول الفحل، والأبعد عن التكلف فى العلاقة، وذلك على تشبـيه الترتب فى الشرف والفضل بالترتب فى الوجود، وهو ما ينبىء عنه كلام رجالات البيان.

ثم إن الترتيب المجـازى بالفاء قد يكون تصـعّدًا من الأدنى إلى الأعلى، على سبيل الترقى فى الفضل أو الشدة، وقد يكون بالعكس، على سبيل التنزُّل، بدءا بالأهم، وانتهاء بما هو دونه أهمية.

وقد تجاذب الترقى فى هذه الآية وجْهَاه، وهما على ما قال الرازى: (أحدهما أن يكون المراد: فما هو أعظم منها فى الجثـة، كالذباب، والعنكبوت، والحمار، والكلب، فإن القـوم أنكروا تمثيل الله تعـالى بكل هذه الأشيـاء، والثانى أراد بما فوقـها فى الصـغر، أى بما هو أصـغر منهـا، والمحقـقون مالوا إلى هـذا القول لوجوه، أحدها أن المقـصد من هذا التمثيـل تحقير الأوثان، وكلما كـان المشبه به أشد حقارة، كان المقصود فى هذا البـاب أكمل حصولا، وثانيها أن الغرض ههنا بيان أن الله تعـالى لا يمتنع عن التمـثيل بالشىء الحـقير، وفى مـثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانيا أشد حقارة من الأول)[2].

هذه الدلالات فى الفاء، تصـعّدا وتحدرا، دليل على ثراء مـعانيهـا المجازية، فهى تعطى معنى الترتُّب فى الأحـداث والصفات، بدءا بالأدنى وانتهاء بالأعلى،

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٦٣.
(٢) تفسير الرازى ٣/ ١٤٨.

إبرازا لعلو درجة المعطوف، أو بدءا بالأعلى، ليتجاوب تقديمه فى اللفظ مع تقدمه فى المنزلة والشرف. وقد مال المحققون إلى الوجه الثانى من التفاوت، لأنه أبلغ فى الرد على من أنكروا ضرب الله الأمثال بالمحقَّرات من الأشياء، فقيل لهم: إن الله لا يستحيى أن يضرب المثل المقرِّب للمعنى بما هو حقير كالبعوضة، بل ولا بما هو أحقر منها، وهذا وإن كان تنزُّلا بدرجة المعطوف، فهو فى الوقت نفسه ترق فى الرد، وتناه فى بيان الحكمة من ضرب الأمثال.

من هذا الضرب قوله عليه السلام -فيما أخرجه الترمذى- حين سئل (أى الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) فبدأ بالأشرف وانتهى بالأقل شرفا. ولعلك تلمس بعد المنزلة بين الأنبياء ومن سواهم من صالحى المؤمنين، حيث دل على ذلك بإدخال حرف التراخى بين الأنبياء وعامة المؤمنين، وهو دال على عظيم التفاوت بينهم، وأدخل حرف التعقيب للدلالة على تفاضل المؤمنين فيما بينهم، وهو تفاوت لا يرقى إلى درجة التفاوت بين الأنبياء والصالحين.

وعلى العكس من ذلك جاء قوله عليه السلام: (أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى)[1] حيث يتعاظم الأجر كلما ازداد البعد، وطال المشى.

والحديث عن التفاوت الرتبى فى عطف المفردات فى الذكر الحكيم محدود، لقلة نماذج هذا النوع من العطف فى القرآن، حتى قال المرحوم الشيخ عضيمة: إن عطفها للاسم المفرد جاء فى نوع معين لم تتجاوزه فى القرآن: هو عطف الصفات، فكل ما وردت فيه الفاء عاطفة للاسم المفرد فى القرآن كان اسم فاعل، معطوفا على اسم فاعل)[2].

ولعل المثال السابق استدراك على الشيخ، فهو من عطف المفردات وليس المتعاطفان صفتين، ولا اسم فاعل.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم -القسم الأول ٢/ ٢٣٤.

والحق أننى لم أجد ما أستدرك به على الشيخ سوى هذا المثال، وما عداه من عطف المفردات فهو -فيما أحصيت- من عطف الصفات، ولذلك كان هذا العطف مدار الحديث فى التفاوت الرتبى عند الزمخشرى ومن تابعوه.

ففى قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١-٤] قال الزمخشرى: (فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة فى الصفات؟ قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود، كقوله:

يا لهف زيابة للحارث الصا ... بح فالغانم فالآيب

كأنه قيل: الذى صبح فغنم فآب.

وإما على ترتيبها فى التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل، وإما على ترتب موصوفاتها فى ذلك، كقولك: رحم الله المحلقين فالمقصرين، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر العاطفة فى الصفات، فإن قلت: فعلى أى هذه القوانين هى فيما أنت بصدده؟ قلت: إن وحّدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات فى التفاضل، وإن ثلّثته فهى للدلالة على ترتب الموصوفات فيه)[1].

فالترتيب على ما ذهب إليه الزمخشرى فى هذه الآيات، لا يصحّ إلا على وجه مجازى هو ترتبها فى الفضل، إما بين الصفات إذا أجريت على موصوف واحد، كالملائكة الصافات أجنحتها فى الهواء، فالزاجرات السحاب سوقا، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزّلة، ويكون ترتبها ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، بدْءًا بما هو أهم، تنبيها على فضل المقدّم واعتناء به، وإما بين الموصوفين، إذا أجريت الصفات على طوائف مختلفة، كأن تكون الصافات وصفا للملائكة، والزاجرات لقواد الغزاة الذين يزجرون الخيل جهادا

(١) الكشاف ٣/ ٣٣٤.

فى سبيل الله، والتـاليات الذكر للعلماء، والترتيـب بين الموصوفات ترتيب رتبى أيضا، بدءا بالأهم أو ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، وهو على الوجهين المحتملين ترتب مجازى، تستعار فيه الفاء الدالة على الترتيب الوجودى للترتيب فى الفضل والشرف.

وقد حمل الزمخـشرى هذه الآيات وما شابهها من عطف الصـفات بالفاء فى الذكر الحكيم على التفاوت الرتبى، واستبعد الترتيب الوجودى الذى قال إنه أحد وجوه الترتيب فى البيت الذى مثَّل به، وكـذلك قال المفسرون من بعده، وكأنهم رأوا عدم إمكان الترتب الحـقيقى بين صفات لا تتتابع فـى وقوعها، إذ الصفّ، والزجر، وتلاوة الذكر لا يظهر فى نسقها مـا يدل على سبق صفة لأخرى، كما لا يظهر فى الموصوفين بها على القول بتـعدّدهم ما يدل على تقدم موصوف على آخر تقدّما وجوديا.

وعلى الرغم من وجاهة القـول بالتفاوت الرتبى، وما يشـيعه التجـوز فيه من إيحاءات، فإننى أرى حمل الفاء على أصلها من الترتيب الحقيقى فى هذا الموضع وما أشبـهه، أدقَّ تصويرا لحركة الأحداث وتتـابعها، شريطة استـبعاد دلالة هذه الصفات على موصوفات مختلفة، مما لا يتـلاءم مع طبيعة الفاء، التى تتميز عن الواو بربط الأحداث على وجه يظهر فيه بـناء الثانى على الأول، وهو خصوصية فى الفـاء كانت سـببـا فى إبعـادها من مبـحث الفـصل والوصل، فلو أن هذه الصفـات لموصوفات مـختلفة لكانت الواو بما فـيها من التـمايز والاستـقلال بين المعطوفات أحق بهذا الموضوع من الفاء.

والدليل على ذلك أنه حين اخـتلفت الطوائف التى جـرت عليهـا الصفـات، جاءت الواو فارقة بينهـا، فى قوله تعالى: ﴿**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا** (١) **فَالْعَاصِفَاتِ عَـصْـفًا** (٢) **وَالنَّاشِـرَاتِ نَشْـرًا** (٣) **فَـالْفَـارِقَاتِ فَـرْقًـا** (٤) **فَـالْمُلْقِيَـاتِ ذِكْـرًا**﴾ [المرسلات: ١-٥] فلمـا دخلت الواو بين الناشرات والمرسلات دلت على أنهـما طائفتان، كل طائفة اتصفت بصفتين على سـبيل التعاقب، ويشهد لذلك صاحب

الكشاف حين قال فى تفسيرها (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن فى مضيّهن، كما تعصف الرياح تخفُّفا فى امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى، أو نشرن الشرائع فى الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر، والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرا إلى الأنبياء)[1] فجعل ما قبل الواو طائفة من الملائكة، ارتبط وصفها بالإرسال بوصفها بالعصف على سبيل التتابع الحقيقى، وجعل ما بعد الواو طائفة أخرى، موصوفة بثلاث صفات متتابعة هى النشر فالفرق، فالإلقاء، وأدت الفاء دورها فى تتابع حركات هذه الطائفة، بما يُنبىء عن ترتّب وجودى بين هذه الصفات، وكان الألوسى صريحا فى إيضاح الفرق بين العاطفين، حين قال: (وعطف الناشرات على ما قبل الواو ظاهر للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات والفارقات على الناشرات، وكذا ما بعد الفاء لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات)[2].

ومثله قوله تعالى فى سورة النازعات حيث دلّت الواو على التمايز بين طوائف مختلفة: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾ [النازعات: ١-٥] وفيه قال الزمخشرى: (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التى تنشطها، أى تخرجها، من: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التى تسبح فى مضيها، أى تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمرا من أمور العباد)[3].

لاحظ قوله بعد كل واو: (وبطوائف) ثم قوله مع الفاء: (تسرع، فتسبق، . . فتدبر) وهو لا يحتاج إلى تعليق.

لذلك أميل فى تفسير المواضع التى تعطف فيها الصفات بالفاء، إلى جعلها لموصوف واحد، تتوالى أفعاله فى تحدّر واتساق يتلاءم مع طبيعة هذا الحرف،

(١) الكشاف ٤/ ٢٠٢.
(٢) روح المعانى ٢٩/ ١٦٩.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٠٢.

ففى سورة الصافَّات أرجح أن يكون المقصود هو قواد الغزاة، الذين يستعدون لشن الغارة على عدوهم، فيصفّون جنودهم، فيزجرون الخيل حثّاً لها على الإسراع إلى مواقع القتال، فيسبحون الله ويضرعون إليه طلبا لنصره، بعد أن استنفدوا وسائل الاستعداد البشرية، وهى أفعال متتابعة، ربطت بينها الفاء، على وجه يظهر توالياها دون انقطاع، بما يدل على استغراقهم فيما رموا إليه من أهداف، دون أن يشغلهم عن وجهتهم شاغل من أمور الدنيا، وفى ذلك تعظيم للجهاد والمجاهدين.

ويمكن أن يكون الموصوف هو العلماء العاملين، الصافّين أنفسهم فى صفوف جماعات المسلمين، فيزجرونهم عن المعاصى، فيذكّرونهم بآيات الله يتلونها عليهم، وهى كذلك أفعال متوالية، تبرز جهادهم المتواصل، ودأبًا فى الدعوة إلى الله لا يملُّ ولا يتخاذل، وهى معان أوردها على نحو قريب من هذا أبو السعود[1].

ويبدو هذا التعاقب فى حركات الأفعال جليّاً فى قوله تعالى: ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ**﴾ [الذاريات: ١-٥] فهى ترسم صورة لحركة الرياح، تثير السحاب، فتسوقه إلى حيث يقسم الله تعالى به أرزاق العباد، فتسقط الأمطار، حيث أراد الله تعالى لها أن تسقط، كما جاء فى سورة فاطر: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر: ٩] وفى الموضعين حرّكت الفاء الأحداث ووالت بينها، على وجه يبرز ترابط الأفعال وتتابعها، مضيا إلى الغاية التى رسمها الله تعالى. وهووجه ذكره الألوسى وجعل الترتيب فيه حقيقيا، بعد أن ذكر وجوها تدل فيها الفاء على الترتيب الرتبى. قال: (وإن حملت على واحد، وهو الرياح، فهى لترتيب الأفعال والصفات، إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولا، حتى تنعقد سحابا،

(١) تفسير أبى السعود ٧/ ١٨٤.

فتحمله ثانيا، وتجرى به ثالثا، ناشرة وسائقة، إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطارها)[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾ [العاديات: ١-٥].

تقول بنت الشاطئ: (مشهد مثير لغارة مفاجئة، تُصبح القومَ على غير انتظار، وموقف المباغتة يلائمه قصر الآيات بما فيها من حسم، وسرعة الانتقال، وتلاحق الأحداث، ما بين العدْو، وإيراء القَدْح، وإثارة النقع، إلى توسّط الجمع، فما إن تعدو الخيل ضبحا، حتى تكون قد توسطت الجمع فى النقع المثار... والعطف بالفاء فيه مع ملحظ السببية، ترتيب دون تراخ أو تمهل أو إبطاء)[2].

غير أن للفاء الدالة على التفاوت الرتبى بين الصفات خلابتها وسحرها، حين تجعل الصفة الواحدة المستمرة صفات متغايرة، متفاوتة فى الرتبة والشدة، للمبالغة فى الوعد أو الوعيد، ومثالها قوله تعالى ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ**﴾ [الواقعة: ٥١-٥٥] فإن الفاء تنتقل بالمشاهد من أمر عجيب إلى أمر آخر أعجب، ومن عذاب شديد إلى عذاب آخر أشد، مبالغة فى تهديد المكذبين، فأنت ترقب الضالين يأكلون شرَّ مأكل، وهم مع ذلك يقبلون عليه فى نهم عجيب حتى تمتلىء بطونهم، فيقدمون على الشراب من ماء تناهى فى الحرارة، يقطّع أمعاءهم، ومع ذلك فهم يواصلون الشرب لا يرتوون أبدا.

فإذا عدت إلى حقيقة الفاء بدلالتها على الترتيب الزمنى ضاعت المبالغة التى يومئ إليها الترتيب الرتبى، متدرجا بالقارئ من أمر عجيب إلى ما هو أعجب، وكأنه يقول: إن تعجب من أكلهم من الزّقّوم، فإن نهمهم فى الأكل منه إلى امتلاء البطون أعجب، وإن غرابة شُرْبهم من الحميم دون غرابة إفراطهم فى الشرب منه.

---

(١) روح المعانى ٢٧/ ٣.

(٢) التفسير البيانى للقرآن الكريم ١/ ١٠٧.

وانظر بعد ذلك كيف يتسلط المعنى الوضعى للفاء من الترتيب الزمنى على بعض المفسرين، فيطفئون جذوة الفاء، ويميتونها بين أيديهم، كما نجده فى قول أبى حيان: (والفاء تقتضى التعقيب فى الشربين، وأنهم أولا لما عطشوا شربوا من الحميم، ظنا منهم أنه يُسَكن عطشهم، فازداد العطش بحرارة الحميم، فشربوا بعده شربا لا يقع به رى أبدا، وهو مثل شرب الهيم، فهنا شربان من الحميم، لا شربٌ واحد، اختلفت صفتاه فعطف)[1].

أترى أبا حيان يقول كذلك بأن الأكل من شجر الزقوم أكلان أيضا، وأنهم حين أكلوا من شجر الزقوم ظنوا أنهم يشبعون فوجدوا أنهم ازدادوا جوعا، فأقبلوا يأكلون لا يشبعون أبدا؟؟

إنه تكلُّفُ تصحيح الترتيب فى معنى الفاء، وليس ثمة أكلان ولا شربان، وإنما هو أكل ممتدّ، وشرب ممتدّ كذلك، وليس هناك ما يبرر العطف المقتضى للمغايرة إلا شدة التعجب من استمرارهم فى أكل ما هو مؤلم، وإفراطهم فى الشرب مما لا يطاق تناول جرعة منه، فأُظهر التمادى على الأكل والشرب فى صورة أكل وشرب آخر أشد وأفظع. وذلك ما أبرزه جار الله الزمخشرى، واستلهم أسراره، فقال: (فإن قلت: كيف صح عطف الشاربين على الشاربين، وهما لذوات متفقة، وصفتان متفقتان، فكان عطفا للشىء على نفسه؟ قلت: ليستا بمتفقتين، من حيث إن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهى الحرارة، وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم أمر عجيب أيضا، فكانتا صفتين مختلفتين)[2].

• التفاوت بين الجمل

وقريب من ذلك فى الغرض وإن كان من عطف الجمل، قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [هود: ٣٢]

(١) البحر المحيط ٨/ ٢١٠.
(٢) الكشاف ٤/ ٥٦.

فليس إكثار الجدال شيئا آخر غير ما عطف عليه، بل هو جدال واحد تتابع وتزايد، حتى ضاق قومه ذرعا بتماديه على الدعوة وإلحاحه فيها، قبل أن يضيق هو باستمرارهم على الكفر والعناد. إن الفاء هنا -بمعنى التفاوت الرتبى فيها- هى التى تجسد صبر نوح عليه السلام وإصراره على مواصلة الدعوة، دون أن تفتّ القرون المتطاولة فى عضده، بل هو يطور دعوته ويزيد فى وسائلها، كلما ازداد قومه عنادا وكفرانا، وهو ما جأر به إلى الله تعالى فى النهاية بعد أن استنفد كل وسائل الدعوة ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾ [نوح ٥-٩].

فإذا أول المؤولون (جادَلتنا) بإرادة الجدال ليصح ترتيبه على المعطوف عليه، فقد ذهبوا بإشراقة هذا المعنى، وأطفأوا جذوته، وأحالوا الفاء جسدا بلا روح، ولا أدرى ما الغرض من التجوز بالإرادة عن الفعل فى خطاب القوم له، وهم ضائقون بجدل وقع واستمر؟

إن ما قاله صاحب الكشف فى تفسير العطف هنا غاية فى الجودة: (الظاهر أنه عبارة عن تماديه فى الجدال، أى أخذت فيه وشرعت فأكثرته وأطلته، وكذلك قولهم: أجاد فلان فأكثر، وأعطى فأكثر، وقَوْلُهم: ولا يراد به عطيتان، لأن الوصف أى الإكثار يجب أن يكون مقارنا للموصوف لا يدفع ما آثرناه، بل يؤكده)[1].

فَفَرْقُ ما بين الشروع والإطالة، أو ما بين الفعل والتمادى عليه، هو التفاوت الرتبى الذى يجعل المعطوف أشد وأقوى، فاستحق دخول الفاء للإشارة إلى التدرج والارتقاء.

---

(١) كشف الكشاف ٤/ ١٠٢١.

• عطف المفصل على المجمل

كثر القـول بعطف المفصل على المجمل فى آيات الذكر الحـكيم، وعدّه النحاة وأهل البيان من التـرتيب فى الإخبار، لا فى المخبر به، ومضـمون ذلك أن الخبر الثانى هو عين الأول، غير أن الأول خبرٌ مـجمل، والثانى مفصّل، فكأن المتكلم بعد أن ألقى الخبر مـجملا، استأنف إخبارا آخر يفصل فـيه ما أجمله. ولا شك أن التفـصيل بعـد الإجمـال ضربٌ من البـيان الرفيع، يوقـظ قوى الإدراك عند المتلقى، ويبعث فضوله، ويحرك شوقه -حين يلقى إليه الخبر مجملا- إلى البيان والتفـسير. لكن هناك أمر يسـتدعى الوقوف عنده، وهو أن الشأن فى الـبيان أن يتصل بالمبـيَّن اتصالا ذاتيـا يستغنى عن واصل لفظى، لـذلك عدّه البيـانيون من مواضع الفـصل، ومنعوا عطفه بالواو، لأنه من عطف الشىء على نفـسه، ومنع الزمخشـرى عطفه بالفاء أيضا فى قـوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار:٦- ٨] حيث علل ترك العطف بالفاء فى قـوله (فى أى صورة ما شاء ركبك) كـما نسقت الجـمل قبلهـا بالفاء، بقوله: (فـإن قلت: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها؟ قلت: لأنه بيان لعَدَلك)[1].

فلم دخلت الفاء بين المفصَّل والمجـمل، والتفصيل بيان لما أجمل وتـفسير له، حتى سـميت هذه الفاء تفـسيرية؟ وكـيف يقال به فى القـرآن، والبعض يرى أن عطف التفسير ليس من أساليب البلغاء؟ كمـا صرح به المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعـيدى فى قـوله: [وأما ما يسـمونه عطف تفـسير مما ليس فـيه مـغايرة بين المعـطوفين، فـليس من أسـلوب البـلغـــاء، وإنما يـأتى فى أسـلوب المؤلـفين وأشباههم)[2].

لقد اكـتفى البعض ببيـان صحة العطف، دون النفاذ إلى سـره، ولا إلى سر إيثار الفـاء من بين حروف العطف فى مـواضعهـا، من مثل قول أبى البـقاء فى

(١) الكشاف: ٤/ ٢٢٨.
(٢) البلاغة العالية ١٠٦.

كلياته: (يصح عطف المفسِّر على المفسَّر باعتبار الاتحاد النوعى، والتغاير الشخصى)[1] وهو -كما ترى- يقف عند الصحة، لا يتجاوزها إلى ما يطمح إليه أصحاب الأذواق.

وإلى مثله ذهب العينى فى معرض شرحه لقول أبى ذر رضى الله عنه: (إنى سابيت رجلا فَعَيَّرته بأمه). قال العينى: (قوله (فَعَيَّرته) عطف على سابيته، فإن قلت: هذا عطف الشىء على نفسه، لأن التَّعْيير هو نفس السَّب، وكيف تصح الفاء بينهما، وشرط المعطوفين مغايرتهما؟ قلت: هما متغايران بحسب المفهوم من اللفظ، ومثل هذه الفاء تسمى بالفاء التفسيرية)[2].

إن التغاير الذى نراه مع دخول الفاء المرتّبة هو التفاوت بين المتعاطفين فى المنزلة، وذلك فى مواقف تتطلب الترقى فى الإيضاح والبيان، كالاستعطاف، والتهديد، والإدلال بالقدرة، والتشديد على المخاطب، وغير ذلك من الأغراض، التى تتدرج الفاء فيها من شديد إلى أشد، أو عظيم إلى أعظم منه، وغير ذلك.

ففى مجال الاستعطاف جاء قوله تعالى: ﴿**وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**﴾ [هود: ٤٥] فما بعد الفاء تفصيل للنداء، وتعقيبه بالفاء دلالة على أنه أبلغ فى الاستعطاف، لما تضمنه من بسط الشكوى واستنجاز الله وعده بإنجاء أهله، والثناء عليه بما هو أهله من العلم والعدل، وكأن الله يقول: دعا نوح ربه فبالغ فى دعائه ومع ذلك فلم يجب إلى ما دعا به، لأنه لا شفاعة لمن آثر الكفر على الإيمان، ألا ترى كيف عدل عن ضمير المتكلم، فلم يقل: وناداناه نوح، كما قال: ﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**﴾ [الصافات: ٧٥] ليشعرك من بادئ الأمر إلى أن ما دعا به نوح مما لايجاب إليه، مهما أفرط فى دعائه، وبالغ فى شكواه، ومن ثم حكى الله النداء بصيغة الغائب (ونادى نوح ربه).

(١) الكليات ٥/ ٢٥١.
(٢) عمدة القارى ١/ ٢٠٤.

لذلك فضَّل صاحب الكشف أن تكون الفاء لتعقيب الإجمال بالتفصيل، على القول بالتجوز فى فعل النداء بإرادة النداء، كما ذهب إليه الزمخشرى، قال فى الكشف: (لو قيل إنه تفصيل للمجمل، وهو تعقيبه لكان سديدا)[1] ذلك لأن تعقيب الخبر المجمل بخبر مفصل تدرُّج وارتقاء، وإبراز لفضل الزيادة فى المعطوف.

وفى مقام تعظيم المعطوف إدلالا بقدرة الله تعالى واستحقاقه الثناء والشكر جاء قوله تعالى ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [غافر: ٦٤] قال أبو السعود: (والفاء فى (فأحسن) تفسيرية. فإن الإحسان عين التصوير)[2] مثل هذا القول يوهم بأن الفاء لادورَ لها، إذ كان المفسِّر والمفسَّر شيئا واحدا، وهو فضلا عن مجافاته لما تقرر من أن العطف يوجب المغايرة، فإن فيه قصورا عن استيعاب أسرار النظم، ذلك أنه جاء فى سياق يتصدره لفظ الجلالة، مخبَرا عنه باسم الموصول، لحصر مدلول الصلة فى المبدع الحكيم، مما يشعر منذ البداية بكمال الخلْق، وعظمة الصنع، لأن الصانع هو الله، ثم ساق الحديث على نحو يبرز الجمال فى الخلق، لا أصل الخلق، فهو لا يمتنَّ على عباده بخلق الأرض، وهى نعمة جليلة، وإنما بإبداعه فى جعلها قرارا، وذلك فوق الخلق نفسه، وكذلك بجعل السماء بناء محكما لا فروج فيه، وليس بخلق السماء، وهو أمر أجلّ من خلقها، ثم كان إبداع البارى فى تصوير الإنسان هو نهاية الكمال فى الخلق، لذلك وقع مؤخرا على سبيل الترقى، بحسبانه أجمل مخلوقات الله صورة، ولما كان الحديث عن جمال الخلق، لا عن الخلق جاء الفعل «صوّركم» لا خَلَقكم، ثم جاء (فأحسن صوركم) انتهاء إلى الغاية فى إحكام الصنعة وإبداعها، فأدى العطف بالفاء دوره فى إبراز نعمة الله تعالى بإحسان صورته، وكأن التصوير نعمة، وإبداعه على أحسن صورة نعمة أجل وأعظم، فهو ترتيب

(١) كشف الكشاف ٤/ ١٠٣٠.

(٢) تفسير أبى السعود ٧/ ٢٨٢.

رتبى لا وجودى، لأن إحسان الصورة مقارن للتصوير، لا واقع بعده، وفى ذلك حثّ على تجديد النظر وتكراره، وتأمل جوانب هذه الصورة البديعة من خلق الله ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ولعل السعد فى حاشيته على الكشاف مسّ ذلك المعنى برفق حين قال: (وجه الفاء أن إحسان الصورة بعد التصوير بحسب الاعتبار، وإن لم يكن بحسب الوجود)[١] فالاعتبار منظور فيه إلى حال المخاطب فى إدراكه الصورة جملة أولا، ثم تأمُّل دقائقها ووجوه الإحسان فيها ثانيا، ارتقاء من النظرة الكلية، إلى النظرة الفاحصة المستوعبة لأجزاء الصورة، وارتقاء من إدراك حقيقة المصوَّر إلى إدراك الحسن فيه.

وفى مقام التشديد على بنى إسرائيل جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فعطف قتل النفس على التوبة، وليس قتل النفس شيئا آخر غير المعطوف عليه. قال الطبرى: (ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من ردّتهم بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به، وأخبرهم بأن توبتهم من الذنب الذى ركبوه، قتلُهم أنفسهم)[٢].

فى عبارة الطبرى هذه دليل على أن التوبة للمأمورين بها هى القتل، وقوله (وأخبرهم بأن توبتهم من الذنب الذى ركبوه قتلهم أنفسهم) ناطق بأنه من ترتيب الإخبار، لا من الترتيب فى الوجود، إذ كان القتل هو عين التوبة، وإلى هذا ذهب الكثير من المفسرين، فجعلوه من عطف المفصّل على المجمل، وتأول بعضهم التوبة بالعزم على سبيل المجاز المرسل، لتصحيح معنى الترتيب الوجودى فى الفاء، وكأن المعنى: فاعزموا على التوبة، فاقتلوا وهو فى نظرى تكلف، دعا إليه الجرْى وراء وجه يُبقى الفاء فيه على دلالتها الوضعية، مفيدة الترتيب الزمنى.

---

(١) حاشية السعد ٢/ ٦٧٢.

(٤) تفسير الطبرى ٢/ ٧٢.

إن الطريق إلى التكفير عن جرائم بنى إسرائيل، وظلمهم أنفسهم بالمعاصى هو التوبة، وهو ما دعا إليه موسى بنى إسرائيل، ولما كانت جرائمهم بلغت حدًّا من الفظاعة تجاوز كل تصور، شدد الله تعالى عليهم فى نوع هذه التوبة، بما يتناسب مع عظم جناياتهم، فاحتاجت إلى البيان، وهو (فاقتلوا أنفسكم). ولما كان المعطوف نوعا غريبا غير معهود فى التوبة عطف بالفاء، للإشارة إلى تفاوته عن المعطوف عليه، وأنه درجة من التوبة، لا يقدر عليها إلا من صحَّ عزمه على تطهير نفسه، وعِتقِها من عذاب النار. فهو تفاوت مجازى بين العزم على الإقلاع من الذنوب واللجوء إلى الله، وبين قتل النفس فى الشدة والدلالة على كمال التوبة، وهو أحد وجوه ذكرها صاحب الكشاف حين قال: (ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم، فيكون المعنى: فتوبوا فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم)[1] وسواء فُسّر قوله هذا بأنه من عطف الخاص على العام، أم من عطف البيان، فإن الفاء بدلالتها على التدرّج الرتبى أبرزت غرابة هذا الفعل، وامتيازه عن التوبة المعهودة، حتى صار لشدة غرابته شيئا آخر كلفوا به فوق التوبة.

وبمثله فسّر الشهاب الخفاجى عطف التكذيب بالفاء، فى قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾ [القمر: ٩] فقال (ويجوز أن يكون معنى الأول: قصدوا التكذيب وابتدؤوه، ومعنى الثانى: أتموه وبلغوا نهايته)[2].

فالتكذيب الأول دون ما عطف عليه، حيث ازدادوا عنادا وإصرارا على الكفر، حتى وصل معه الأمر إلى اتهام النبى الكريم بالجنون، ففى قول الشهاب (أتموه وبلغوا نهايته) إفصاح عن سر الفاء، حيث ترقَّت من تكذيب إلى تكذيب أتّم وأبلغ، ألا ترى كيف حذف المفعول فى الأول، تركيزا على فعل التكذيب، وذُكِر فى المعطوف بلفظ العبودية المشرفة للموصوف بها، وأضيف إلى المعبود،

(١) الكشاف ١/ ٨٢١.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ١٢٢.

فـأضفى على المعطوف درجـة من التعظـيم، جعلت التكذيب فـيه أشـد وأبلغ، فدخلت الفاء دالة على التفاوت بين المتعاطفين.

وفى مقام التعظيـم، جاء قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٩٥] (قال الزمـخشرى: (فالذين هاجروا) تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم)[1] فإن الفاء دلت على عظم درجة المهاجرين والمجاهدين فى سـبيل الله وكأنهم فاقوا العاملين فى درجتـهم عند الله تعالى حتى صاروا جنـسا مستـقلا عنهم، لذلك أطنب فى أوصافهم بما يظهـر فضلهم. ودلت الفاء على التفاوت فى الفضل وكـمال العمل فى الهجرة والجهاد.

(١) الكشاف ١/ ٤٩٠.

Obeikan.com

الفاء وطَيُّ الزمن

التعقيب من المعانى الـتى اختصت بها الفاء، وبه وحده امتازت عن شقـيقتها (ثم)، ويقصـد بالتعقيـب: وقوع المعطوف بعد المعطوف عليـه بلا فاصل زمنى. (فإذا قلت: قام زيد فعمرو، دلت على أن قيام عمرو بعد زيد بلا مهلة. فتشارك (ثم) فى إفـادة التـرتيب، وتفـارقـهـا فى أنهـا تفيـد الاتصـال، و(ثم) تفـيـد الانفصال)[1].

ولكون التعقيب لازمًا فى الفاء، وبه يتـعلق الغرض من الكلام، بحسبانه أمرًا زائدًا على مجـرد الإثبات، قال الرضى: (فـإذا نفيت مثلاً قـولك: (جاءنى زيد فعـمرو)، فقلت: (مـا جاءنى زيد فعمـرو)، فأنت نافٍ لتعـقيب مجىء عـمرو لمجىء زيد، فيمكن أن يحصل المجيئـان فى حال، وأن يحصل مجىء عمرو قبل مجىء زيد)[2].

وهو كلام دقيق فى فهم المعانى، ليس لدى أهل البيان عليه مزيد، غير أن هذا الذى جعله النحـاة أصلاً فى معـانى الفاء، وبه ميـزوها عما سـواها من حروف العطف، لم يطّـرد لهم عند التطبـيق على لـسـان العـرب، فلم يجـدوا بدًّا من التوسع فى معنى التعقيب، فـقالوا (هو فى كل شىء بحسبه، ألا ترى أنه يقال: تزوج فلان فـولد له، إذا لم يكن بينهـما إلا مـدة الحمل، وإن كانت مـتطاولة، ودخلت البـصرة فبـغداد، إذا لم تُقم فى البـصرة، ولا بين البلـدين، وقال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ [الحج: ٦٣].

وقيل: الفاء فى هذه الآية للسـببية، وفاء السـببية لا تستلزم التـعقيب، بدليل صحة قوله: (إن يسلم فهو يدخل الجنة) ومعلوم ما بينهما من المهلة، وقيل: تقع الفاء تارة بمعنى (ثم) ومنه الآية[3].

---

(١) الجنى الدانى ٦١.

(٢) شرح الكافية ٢/ ٣٦٦.

(٣) مغنى اللبيب ١/ ٦٢١.

وهكذا تفاوتت الآراء فى تفسير ما خالف ظاهره التعقيب، بين الاتساع فى مفهوم المهلة، والقول بعدم لزوم التعقيب، ووقوع الفاء موقع (ثم).

وخير ما قيل فى تفسير التعقيب والتراخى، وربطهما بدواعى الأحوال ومقتضيات السياق، ما قاله صاحب الفرائد، فأطبق به المفصل: «التعقيب والتراخى ربما يكون باعتبار قِصر الزمان الفاصل وطوله فى نفسه، من غير لحاظ الشيئين المفصولين، وقد يلاحظ فى ذلك حالهما، وحينئذ ربما يستقصر الزمان الطويل بين شيئين، فيؤتى بالفاء لكون العادة مقتضية لمثله، أو أزيد منه، ويستطال القصر بين آخرين، فيؤتى بثم لاقتضاء العادة أقل منه، يقال: فلان تزوج فولد له، والفصل بينهما بشهور، وأكل ثم شرب، والفصل بساعات، ثم إنه يستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى، لاعتبار آخر، فيؤتى بثُمّ، وربما يكون الإتيان بالفاء باعتبار قلة الفاصل من الزمان بينهما، وبثم باعتبار كثرة التفاوت فى الدرجة، أو بالفاء لقلة التفاوت، وبثم لكثرة الفاصل»[1] هذا كلام تتطامن لدقته وروعته الرءوس. ولم أجد لمثله شبها عند من عالج مواقع الفاء، والتباسَها بمواقع (ثم)، وأروع ما فيه أنه جعل الزمن إحساسًا، وتقديرُ لحظاته بنبضات القلب وخفقات الشعور، لا بحركات العقارب وامتداد الظل وانحساره، فما يستقصر فى ساعات الأنس والسعادة، يستطال ما هو دونه، حين تقبض الهموم على الأنفاس، وتعتصر النفوسَ آلامُ الوحشة والاغتراب، فإذا كان الكلام الجيد هو الذى يصطبغ بأحوال النفوس، ويعكس صفاءها وكدرها، ويجسّد حركتها فى جزْرها ومدّها، فلا غرو أن تنعكس على هذه الحروف ظلال الانقباض والانبساط فى النفس، وأن ينقل لنا حرفا التعقيب والمهلة إحساس المتكلم بالزمن قبضا وبسطا، وحينئذ فلا عجب أن يختلف تقدير زمن واحد بعقارب الساعة، فيستطال عند متكلم، ويستقصر عند آخر، مادامت الحروف تعكس الإحساس، لا ترصد عقارب الساعة.

(١) الفوائد فى شرح الفوائد ٢٤.

ومعظم ما قيل -عدا هذا الذى ذكره صاحب الفـرائد- فى تفسير مخالفة الفاء لظاهر ما يقضى به معناها من التعقـيب، كان يقف عند الصحة والجواز، وينتهى دون البحث عن أسرار هذه المخالفة، وحـسبك أن تقرأ ما قاله الرضى، وهو فى معـالجته لمسـائل النحو أقرب مـا يكون إلى ذوق أهل البيـان: (ثم اعلم أن إفادة الفاء للترتيب بلا مـهلة، لا ينافيها كـون الثانى المترتب يحصل بتمـامه فى زمان طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبًا لما تقدم، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ [الحج: ٦٣]. فإن اخضـرار الأرض يبتدئ بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلـة، فجيء بالفاء، نظرًا لأنه لا فصل بين نزول المطر وابتـداء الاخضـرار، ولو قال: ثم تصـبح، نظرًا إلى تمام الاخـضرار جاز[1].

فإن قوله بصـحة وضع «ثم» موضع الفاء، بالنظر إلى تمام الاخضـرار، يقصر عما رَمَـقه صاحب الفرائد من سمـاء البلاغة، فى وجوب اختـصاص كل حرف بموضعه الذى يقـضى به السياق، وتوجبه الـدواعى والأغراض، بحيث لو وضع فى مكانه غيره لـضاق به مكانه ولفظه، وسيجيء لهذا حـديث فيما اشـتبه لفظه وتجاذبه حرفا التعقيب والتراخى.

هذه الاعتبارات التى أوجزها الجونفـورى هى التى نعالج بها ما بدا من خروج الفاء على ما ألفناه فيها من الموالاة بين الأحداث.

من ذلك قولـه تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٣٥- ٣٦].

فما بين نهى الله آدم وزوجه عن قـرب الشجرة، وبين الإزلال والإخراج زمن طويل، أدى إلى نسيـان آدم ما أوصاه الله به، علـى ما جاء فى قـوله تعالى من سورة طه: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ**﴾ [طه: ١١٥]، لكن هذا الزمن

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

الطويل بالنسبة إلى ما كان يتمناه من طول الإقامة فى الجنة، وإلى إحساسه بالسعادة والنعيم فيها هو جدّ قصير، وأيام السعادة -مهما طالت- تستقصر، هذا إلى جانب ما يستدعيه موقف العتاب واللوم، من إظهار آدم فى صورة من أسرع إلى الاستجابة لإغواء الشيطان، ولم يطل به زمن التردد والصدود عما دعاه إليه، وذلك أكثر إيلامًا وإيجاعًا لمن وُجِّه إليه العتاب.

لقد طوت الفاء هذا الزمن الطويل، وأخفته بدلالتها على التعقيب، لتحقق هذا الغرض، فإذا أردت تفسير ذلك على قواعد الصناعة، فقل: إن التعقيب هنا مجازى، ينزل فيه الفاصل الطويل من الزمن منزلة القليل منه للاعتبارات المذكورة، فالفاء هنا مستعارة للدلالة على سرعة الاستغواء والإحساس بقصر الزمن.

وإلى بعض ذلك أشار صاحب التحرير والتنوير حين قال: (الفاء عاطفة على قوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا**﴾، وحقها إفادة التعقيب، فيكون التعقيب عرفيّاً، لأن وقوع الإزلال كان بعد مضىّ مدة، هى بالنسبة للمدة المرادة من سكنى الجنة كالأمد القليل[1].

وانظر إلى خلابة الفاء وحسن موقعها، حين تطوى من الزمن ما لا يمكن تقديره بغير الإحساس، فى الفترة ما بين الموت والبعث، التى تكرر فى القرآن استقصارها فى خطاب الكافرين، كما فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٤].

هذا الزمن الطويل تطويه الفاء فى مقام التهويل من شأن عذاب الآخرة، فى قوله تعالى، وصفا لما حلّ بقوم نوح من العذاب: ﴿**مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا**﴾ [نوح: ٢٥].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٣٣.

فما بين الغرق وإدخالهم نار جهنم زمن متناه فى الطول، لكنه بالنسبة إلى ما سيلاقونه فى عذاب جهنم لا يدخل فى عداد الزمن، حتى إنهم ليتمنون -لسوء ما ينتظرهم- ألا تقوم قيامتهم. والفاء فى طيّها لهذا الزمن تفظيعًا لما أعقبه، تؤدى دورها فى تعقيب مجازى، يحقق غايتين: أولاهما الدلالة على تحقق عذاب جهنم، وتنزيل المتوقع منزلة الواقع، وثانيهما: عدم الاعتداد بما دونه من ألوان العذاب، كعذاب القبر، حتى يصير بالنسبة إلى عذاب جهنم كلا عذاب.

وقد أحسن الألوسى بيان هذا التجوز فى قوله: (وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنه شبه تخلّل ما لا يعتدّ به، بعدم تخلّل شىء أصلاً)[1].

وفى مقام خرق العادة يتلاشى الزمن بين أصابع القدرة الإلهية، ويضمر الوقت، ويختفى فى أحشاء الخوف من مستقبل منذر بأخطار محدقة، تجد ذلك فى قوله تعالى حديثًا عن مريم عليها السلام: ﴿**فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ به مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾ [مريم: ٢٢- ٢٣].

لا شك أن زمنًا -مهما قيل فى قصره- قد تخلل بين حمل مريم ومخاضها، وأن هذا الزمن فيه من المهلة ما يخالف مواقع الفاء، ولكن لما كانت العادة أن يستغرق الحمل شهورًا عديدة، فأى اختصار فى الزمن يتحقق معه خرق العادة هو بمنزلة انعدام الزمن، ولا ينهض بالتعبير عنه، والمبالغة فى تصوير قصره غير هذه الفاء، هذا إلى جانب ما أخذ مريم من الدهشة لحدوث هذا الحمل الغريب، واختلاطها بمشاعر الخوف مما سيواجهها من قومها، ورميها بما هو أقسى من الموت لدى الحَصان البتول، إذا ما أتت حاملة وليدها، على ما نمَّ به قولها ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾، والخوف من المستقبل يأكل زمن الحاضر ويطويه، فلا يحس به الخائف، لانشغاله بما يملك عليه حسَّه وشعوره.

(١) روح المعانى ٢٩/ ٧٠.

ثم انظر إلى هذا التواصل الفكرى والشعورى بين المكذّبين من الأمم، وحذو كلّ أمة سابقتَها فى فعالها، وكأنها ترقبها فتحتذيها، تطابق النَّعل بالنَّعل، على بعد ما بينهما من الأزمان والمسافات، فتطوى الفاء صفحات الزمن لتبرز قوّة التشابه بينهم فى السلوك، وشدة المحاكاة فى التكوين الفكرى، وكأنهم يعيشون فى زمن واحد، ويردد أصداءهم فضاءٌ واحد، ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا**﴾ [التوبة: ٦٩].

تأمل قوله ﴿**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ**﴾ وكيف عدل عن الواو -وهذا موضعها- فلم يقل: ﴿**واسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ**﴾ ليحقق الغرض من إبراز الاتصال بين المخاطبين من المشركين، ومن سبقهم من الأمم المكذّبة، فينمحى الزمن، ويختفى وراء هذا التواصل الفكرى والنفسى. ألا ترى كيف أكد هذا التشابة والاحتذاء بثلاثة تشبيهات، كلها تتلاقى حول إبراز هذا التواصل فى التفكير وأنماط السلوك: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾. ﴿**فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ**﴾. ﴿**وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا**﴾؟ ولعل إفراد اسم الموصول ﴿**كَالَّذِينَ**﴾ فى مقام الجمع، ماض إلى الغاية من وحدة الفكر والهوى، حتى لكأنهم فرد واحد.

إنها متابعة فى الأفعال حذو القُذَّة بالقُذَّة، واندفاع بلا تريُّث أو نظر، كما تراه فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**﴾ [الصافات: ٦٩- ٧٠].

فانظر كيف تعانقت الفاء مع الفعل «يهرعون» للإشعار بالمسارعة إلى اعتناق دياناتهم وأفكارهم، دون أدنى تأمل واستبصار؟

وضع ذلك إن شئت -على طريقة أهل الصناعة- فى صورة مجاز بالاستعارة، ينزل فيه الإسراع إلى المحاكاة والتقليد بلا تأمل واستبصار، منزلة التعاقب الزمنى، بلا مهلة.

إنك لتدهش من هذه الفاء، وهى تطوى الزمن فتريك من آيات الله عجبًا، تنشر الحياة بسرعة لا تكاد العين تلاحقها فى موضع، وتقلب الأخضر يابسًا، والحى ميتًا، قبل أن يرتدّ إليك طرفك فى موضع آخر.

فها هى ذى تصل الماء بالأرض، فيتحول -فى لحظة- موتها حياة، ويتبدّل جدبها خضرة. ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحج: ٦٣]. ﴿**اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٣٢].

مسّت الفاءَ يدُ القدرة الإلهية، التى ينمحى معها الزمن، حين يتكوّن الشىء بالإرادة، ويقع بأمر التكوين، ويصبح الزمن بين أفعال الله معدوم الأثر، لتحقق ما يريده الله تعالى على الوجه الذى يريده، فلا يتخلف عما قضاه الله وقدره.

إبراز تحقق الوقوع، واتصال السبب بالمسبب على وجه لا يتخلف، هو الذى وضع الفاء فيما يبدو أنه موضع حرف التراخى. وما قيل من أن الفاء دخلت مراعاة لأول زمن الاخضرار الذى يعقب نزول الماء، لا يرتفع إلى سماء البلاغة المعجزة، إذ أن غاية هذا القول، هو تجويز تبادل الفاء وثم هذا الموقع، الأول بالنظر إلى بداية الاخضرار، والثانى بالنظر إلى تمام المدة.

هذه المدة التى نقلتنا بسرعة من نزول الماء إلى اخضرار الأرض، فى مجال تعديد النعم، وتوجيه الخلق بفكرهم وقلوبهم إلى المنعم الوهاب، نجدها تنقلنا بالسرعة نفسها من الحياة إلى الموت، ومن الجمال الأخضر إلى كآبة الجفاف والفناء فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ**﴾ [الأعلى: ٤- ٥] والغثاء هو اليابس المتكسّر من النبات. والأحوى: الأسود، ولا جدال فى أن هذا المرعى من النبات الأخضر، لا يستحيل غثاء بالسرعة التى تعبر عنها الفاء، لكن النظم الكريم فى مقام يزهّد فيه من التشبّث بالحياة، والانكباب عليها، يركّز على سرعة الفناء، حتى لا تتعلق النفوس بها هذا التعلق، الذى أنكره على المخاطبين فى قوله: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

وهذا السبب نفسه هو الذى جاءت الفاء مـن أجله، فيما ضربه الله تعالى من الأمثال، المنفّرة من الاغترار بالدنيا وزهرتها، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾ [الكهف: ٤٥].

لقد أدت الفاء دورها فى رسم الصورة التى أرادها النظم الحكيم للحياة الدنيا، وضآلة نعيمها، فى جنب ما أعده الله تعالى للطائعين من النعيم المقيم، فهى زمنًا وحجمًا لا تستحق هذا الاغترار من الناس، وهم لا يتلبثون بها إلا يسيرًا، فما تدوم زهرتها أكثر من دوام نبات لم يكد يزهر حتى جفّ وذبل وذرته الرياح.

إن هذا الغرض من تقليل شأن الحياة الدنيا والنعى على المكبّين عليها، لا تحققه فى الصورة الممثلة، إلا هذه الفاء بطيّها للزمن، وتقصيرها للحكاية. فإذا جاء البغدادى وعلل دخول الفاء فى قوله «فجعله غثاء أحوى» بقوله: «فإن قلت: لا تعقيب فى الآية، فإن الغثاء: اليابسُ المتكسر من النبات، والمرعى إنما يصير غثاء بعد مدة؟ قلت: إذا تمت خضرة المرعى ورفيفه أخذ فى الجفاف والذبول، وهذا أول صيرورته غثاء، وتعقيب كل شىء بحسبه»[1]، فإنه بذلك يعلل لصحة وقوع الفاء، ولا يكشف عن سرّ إيثارها على حرف المهلة.

إن حبس التعقيب فى قفص من التوالى الزمنى الحقيقى يضمر حركة الفاء ويطفئ إشعاعها، ويذهب بأشدّ مواضعها ثراء، حين تخلع ثوب الحقيقة، لتطوى من الزمن ما يثقل حركة الأحداث. إذا لم يكن للمتكلم قصد فى إنضاج الزمن لها. أو نقل إحساسه ببطء خطواته.

فالمتكلم هو الذى يملك التحكم فى حركة ذهن المخاطب، يبطئ بها أو يسرع، ويقص من شريط الزمن ما يرى أنه يلفت المخاطب عن تصور حجم الأحداث، والعُرَى التى تربط بينها.

(١) شرح بانت سعاد للبغدادي ١٧٣.

هذه الفاء الطاوية لمساحات الزمن أشبه بمقياس الرسم البيانى على الخرائط، تصغّر فيه المسافات على نحو يمكن معه تصور سطح الأرض جميعها فى صفحة من كتاب، وهذه الصفحة التى فرغت عليها مساحة الزمن هى مخيّلة المتلقى، التى تعبر من خلالها شرائط الأزمان الطويلة، ويطويها الذهن فى لحظة من الزمن.

ولعل قريبًا من هذا ما قصد إليه أبو البقاء حين جعل التعقيب ثلاثة أنواع:

(التعقيب الزمانى، كقولك: «قعد زيد فقام عمرو» لمن سألك عنهما، أهما كانا معًا أم متعاقبين؟ والتعقيب الذهنى، كقولك: «جاء زيد فقام عمرو إكرامًا له» والتعقيب فى القول، كقولك: لا أخاف الأمير فالملك فالسلطان» كأنك تقول: لا أخاف الملك، فأقول: لا أخاف السلطان[1].

وإليك أمثلة لهذه الفاء المصورة لسرعة وقوع الأحداث وتواليها، على نحو يخيل للقارئ والسامع، أنها بدأت وانتهت دون أن تتحرك عقارب الزمن.

قال تعالى ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ** ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

تأمل تلك الحركة البطيئة التى جمعت فيها الواو، بين صنوف من النعيم استغرقت مساحة عمر صاحب الجنة كلهّ، فأثقلت هذه الواو حركة العرض، لتمكن المشاهد من تأمل ألوان الحياة الرخيّة الناعمة، وما حفلت به الجنة العجيبة من متع الحياة ولذائذها، ثم قارن ذلك بحركة الفاء، وهى تمحو الزمن من طريقها، لتقتلع هذه الجنة من الأرض، وتحيلها أثرًا بعد عين «فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت».

(١) الكليات ٣/ ٣٢٢.

أى مفاجأة وأى ذهول يمكن أن يرتسم على وجه مشاهد، طال تحديقه ببصره فى هذه الجنة، واستمتع بجمالها وبهائها، إذا ما التفت فرآها قد أزيلت من الوجود؟ أو يكون هناك تحذير أبلغ من هذا التحذير، لمن يحبطون أعمالهم الصالحة بما يتبعونها من المن والأذى. فتذهب كما ذهبت هذه الجنة فى طرفة عين؟ سرعة الهلاك بعد طول الرخاء، ذلك ما جسَّدته الفاء والواو فى الصورة الممثَّلة.

ثم انظر إلى هذه الفاء فى مقام التسجيل على الكافرين، وتقبيح أعمالهم، كيف تبرز بشاعة الجرم، حين يقابلون نعم الله بالكفران، ويسيئون إلى المنعم قبل أن يجفَّ ندى إحسانه من أيديهم: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل: ١١٢].

ففى قوله ﴿**كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً**﴾ ما يشعرك بأن القرية ظلت رَدْحًا من الزمن تنعم بثمرة إيمانها، فى ظل رغد من العيش، وقوله ﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ**﴾ تطوى فيه الفاء هذا الزمن، لما أن سوء العاقبة يمحو أثر النعمة، حتى لكأن صاحبها لم تمرّ به سعادة قط، وتعقيب النعمة بالكفران يبرز فظاعة الجرم من وجهين: أولهما أنه يقضى على أى تصور لشكر المنعم، كما لو عطف بحرف التراخى، المشعر بأن الكفر وقع بعد مهلة من الزمن، وثانيهما قبح مقابلة الإحسان بالإساءة، حين يكفر الآخذ نعمة المعطى ولاتزال العطَّية فى يده. فذلك من الدناءة والخسة ما تجمع عليه العقول والطباع، وتأمل الفاء فى قوله ﴿**فَأَذَاقَهَا**﴾ وكيف طوت من الزمن ما نعْهده من إملاء الله تعالى للكافرين، وكأن عذاب الله قد حلّ بهم منذ أن نطقت ألسنتهم بالكفر، وأعمالهم بالجحود، حتى لا يستهين المضروب لهم المثل بما يهددهم الله به من العذاب، ويستنيموا إلى حِلْم الله فى تأجيل العقوبة. فكل زمن -مهما طال- مع العصيان، إلى جانب ما يعقبه من عذاب الله جدُّ قصير.

وهذه فاء أخرى لها مذاق آخر فى طيّها للـزمن، تبرز الحركة السريعة والتوافر الجادّ على العمل، دون فتور أو انشغال عنـه، فينجزه صاحبه فى وقت من شأنه ألاَّ ينجز فيـه، فتقع الفاء دالة على المبـالغة فى سرعة إتمامـه. يقول الله تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ** ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٧].

ليس مثل الفـاء فى قوله ﴿ **فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** ﴾ حرف ربط آخر يـعبِّر عن سماحة نـفس إبراهيم وطواعيتها لبذل الخـير، وجدّه فى إكرامه لضيـفه، فينهب الزمن نهبًا، ليقدم لضيفانه أعظم ما عنده، دون ريث أو انتظار، حتى لكأنهم لم يفتقـدوه، فيما بين ترحـيبه بهم وتقديم العـجل لهم. إنها نفسٌ فيَّاضـة بالخير، تفجر طاقـات الجوارح لتحقيق مـا أرادت، فيما لا تستطـيع النفوس الشحُّ إنجازه حتى لو أرادت، وهـذا هو معنى ما أشـار إليه صـاحب الفرائد من اسـتقـصار الزمن، حين يكون فى الفعل خروج عن العادة فى مثله.

وأخيرًا هذه الفاء التى طوت ثلاثة أشهر من الزمن أو مـا يقابلها من حيضات ثلاث، هى مدة المعتـدَّة من الطلاق، فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا** ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فللفاء فى قوله ﴿ **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** ﴾ -وبلوغ الأجل لا يكون إلا بانتهـاء العدة- من السحر والخلابـة ما لاتجده فى غير النظم المعجز. ذلـك أن الآية -كما يقول ابن عطية -(خطاب للرجال، لا يختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهى للرجل أن يطوّل العدة على المرأة مـضارة منه لها، بأن يرتجع قرب انقضـائها، ثم يطلق بعد ذلك)[1].

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٥.

وكـأنى بهذه الفـاء تفـوّت على الزوج المعتـدى فـرصة التـلاعب بالزمن، ومماطلة زوجه إضرارًا بهـا، فتسترق منه زمن العـدّة كله، قبل أن يفيق ليكرر عدوانه.

ثم إن فيهـا شائبة تحذير من الاسـتهانة بالزمن، وتضيـيع الفرصة لمن أراد الاستمساك بأهـله، ووَصْل عُرى المودة، حتى لا يفوت الوقت على من أراد المراجـعة، ويصـبح مُحـالاً ما كـان ممكنًا، بعد مـا تَبِينُ الزوجـة، وتتـعذر المراجعة.

obeikan.com

الفاء ومَطْل الزمن

مطّ الزمن ومَطْلُه معنى غـريب على الفاء التى وضعت لعكسـه، وأشهد أننى توقفت أمـام هذا المعنى طويلاً، وأنا أتأمل الفـاءات فى الكتاب العـزيز، وألتقط الإشارات التى تهمس بها فى سياقـها حينًا، والإشارات العابرة التى ترد فى كلام العلماء حينًا آخر. وكانت أول إشارة قادتنى إلى هذا المعنى، وصرفت همتى إليه قد وردت فى عبارة موجزة لا تتجـاوز عدة أسطر، فى مقال من سلسلة مقالات للأستاذ الكبيـر الشيخ محمود شاكر، بعنوان «نمط صـعب ونمط مخيف» نشرت فى مجلة المجلة. فقال عند تحليله لأبيات الشاعر

يركب الهـول وحيـداً، ولا يصـحبـه إلا اليمـانى الأفلُّ
وَفُـتُوٍّ هجَّـروا، ثم أسروا ليـلهم، حتى إذا انجـاب حلُّوا
كل مـاض قـد تردّى بماض، كَـسـنا البـرق إذا مـا يُسَلُّ
فـادّركنا الثـأرَ مـنهم، ولم ينج مِـلْحَـيَّـيْنِ إلا الأقّلُّ
فاحـتسوا أنفـاس نوم، فلما هوّموا رُعْـتُهُمُ فاشـمعلّوا

قال الشيخ فى بيان سر الفاءات: «فادَّركنا. فاحتسوا. فلما هوَّموا»:

(أما الفـاءات التى بدأت منذ البيت الثالث عـشر، وتتابعت حتى آخـر مقطع الغناء، فهى التى أكـسبت الغناء هذا التحدُّر والتدفّـق، لأن الفاء تحرك الزمن فى الفـعل الماضى، وتمطله، حتى تبلغ بـه أول الزمن فى الفعل الذى يليـه، وهكذا دواليك، حتى تنقطع الفـاءات، وأنت واجد فرقًا لا يوصف فى حـركة الزمن، بين قولك: نام، وأفاق، ولبس ثيابه، وخـرج، ولقى صديقه، وانطلق. وقولك: «نام فأفاق فلبس ثيابه، فخرج، فلقى صديقه فانطلق». وهذا الذى وصفتُ زيادة على ما قـاله النحاة من أن الفاء تُفيـد مجرد التـرتيب. ومن تأمل «الفاءات» فى كتاب الله سبحانه وتعالى رأى عجبًا)[1].

(١) مجلة المجلة ص ١٦، الحلقة الخامسة- العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٦٩.

هذا كل ما قاله الشيخ فى الفاء، وهو -على إجماله- كاف فى الإشارة إلى ما قصد إليه. وفى عبارته: «ومن تأمل الفاءات فى كتاب الله سبحانه رأى عجبًا» دعوة إلى تلمّس مثل هذه المعانى فى النظم الكريم.

تتبعت -على ضوء هذه الإشارة- ما قاله اللغويون والنحاة فى معانى الفاء، فوجدت قريبًا مما أثبته الشيخ، فيما ذكروه لها من معنى الغاية. قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [البقرة: ٢٦]: (والفاء بمعنى إلى، أى إلى ما فوقها، وهذا قول الكسائى والفراء أيضًا)[١].

ونسب ابن هشام مثل هذا القول إلى بعض البغداديين، فى قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللِّوى بين الدخول فحومل

وبرغم استغراب ابن هشام لهذا المعنى، فإنه استأنس له بما يؤيده، وإليك نص عبارته: (قال: والفاء نائبة عن «إلى» ويحتاج على هذا القول إلى أن يقال وصحت إضافة «بين» إلى «الدخُول» لاشتماله على مواضع، أو لأن التقدير: بين مواضع الدخول. وكون الفاء للغاية بمنزلة «إلى» غريب. وقد يستأنس له عندى بمجىء عكسه فى نحو قوله:

وأنتِ التى حبَّبت شَغْبا.. إلى بدا إلىَّ وأوطانى بلاد سواهما

إذ المعنى: شَغْبا فبدا، وهما موضعان. ويدل على إرادة الترتيب قوله بعده:

حللْت بهذا حلة ثم حلة بهذا فطاب الواديان كلاهما

وهذا معنى غريب، لأنى لم أر من ذكره)[٢].

والحق أن الفراء ذكره فى الآية التى مثّلنا بها، وقال: إن هذا الوجه أحبُّ إلىّ[٣] وذكره الهروى، وحرر عبارته تحريرًا دقيقًا حين قال: (وتكون نسقا بمعنى

(١) تفسير القرطبى ١/ ٢٠٨.
(٢) المغنى ١/ ١٦٢.
(٣) معانى القرآن ١/ ٢٢

«إلى»، كقولك: «مطرنا بين الكوفة فالقادسية»، المعنى: إلى القادسية، ولا يجوز أن تقول: دارى من الكوفة فالقادسية، لأن دارك لا تكون آخذة ما بين الكوفة إلى القادسية. وإنما تصلح «إلى» إذا كان ما بين الكوفة والقادسية، كله من دارك. وكذلك محال أن تقول: «جلست بين زيد فعمرو»، إلا أن يكون مقعدك آخذا للفضاء الذى بينهما)[1].

وجه اتصال هذا المعنى بما قال الشيخ محمود شاكر، أن قولك: أمطرنا بين الكوفة فالقادسية بجعل الفاء للغاية، يدل على استمرار هذا المطر وتتابعه، من مبدأ سيرهم من الكوفة إلى القادسية. وهذا دليل على طول زمن سقوط المطر وامتداده، حتى انتهوا إلى المعطوف وهو القادسية.

ونتأمل الفاءات فى كتاب الله تعالى، فتتوالى النماذج التى تطيل الفاء فيها زمن الفعل المعطوف عليه، وتحركه لتصله بزمن المعطوف، مضمنة الفعل الأول معنى الاستمرار، المستغرق لمساحة زمنية طويلة، دون فتور أو انقطاع، وخاصة فيما يرويه الله تعالى من قصص الأنبياء مع المكذبين من أقوامهم.

من ذلك قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ١٤].

فالفاء الأولى فى قوله «فلبث» تدل على التعقيب الذى يبدأ به عمر الرسالة، مما يدل على أن العدد المعيَّن من السنين هو عمر دعوته لقومه، وليس عمره الشخصى على ما زعمه البعض. ثم جاءت الفاء الثانية لتمط زمن اللبث وتطيله، تحقيقًا للغرض من تسلية الرسول عليه السلام، وقد ضاق صدره بطول صدود قومه، وكأنه يقال له: أتضيق بتكذيب قومك سنوات، وقد صبر نوح على أذى قومه وتكذيبهم قرونًا عديدة، لم ينقطع عنه تكذيبهم لحظة، إلى أن أخذهم الله بما استحقوه من العذاب؟!

(١) الأزهية فى علم الحروف ٢٤٤.

تجاوب مطل زمن مكثه بينهم واستمراره على دعوته، مع صيغة العدد، التى بدئ فيها بالأَلْف ليكون أول ما يقرع السمع، فيخيل من طول المدة ما لا ينهض به لو قيل: فلبث فيهم خمسين وتسعمائة، يعاونهما فى هذا المطل للزمن الإطناب بذكر «عامًا» وهو مفهوم من قوله «ألف سنة»، ليتناغم طول اللفظ مع طول ما عبّر عنه من الزمن، وذلك ضرب آخر من الإعجاز.

هذا المعنى الذى خلعته الفاء على الفعل قبلها، ونفخت فيه من روح التعقيب، ليمتد ويتنامى حتى يتصل بانتقام الله تعالى من المكذبين، امتداحًا لروح الإصرار وصدق العزيمة فى نبى الله، ودعوة إلى التأسى به، هو الذى اقتضى دخول الفاء، بحيث لو وضعت «ثم» موضعها، لتلاشى الغرض من وصل إقامته على الدعوة ومتابعته لها بزمن الإهلاك، ولكان الغرض حينئذ الدلالة على أن الإهلاك كان بعد طول إمهال، وأن الله تعالى أرخى لهم العنان ليأخذهم شر أخذة، وهو معنى آخر لم يقصد إليه النظم.

ألا ترى حين أريد هذا المعنى من الإملاء، ومقابلة مكر المكذبين بمكر أشد، استدراجا لهم، ليزدادوا كفرًا، فيضاعف الله لهم العقاب، جاءت «ثم» فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ [الرعد: ٣٢].

وبسط ذلك أن الغرض فى الجمل التى تعطف بالفاء أو ثم يتوجه إلى التعقيب أو التراخى باعتبار كل منهما معنى زائدًا على مجرد الإثبات، فالجملة -كما قرر أهل البيان- إذا تعلق بها أمر زائد، كان هو محط الفائدة، والغرض من الكلام. فمع الفاء يكون المعنى على اتصال لُبْثه فيهم هذا الزمن الطويل بإهلاكهم، دون فتور أو انقطاع، فينصرف الغرض إلى امتداح نوح على استمراره فى دعوته دون ملل أو يأس، وذمّ المكذبين الذين لم يثوبوا إلى رشدهم على مر القرون.

أما مع «ثم» فالمعنى على تراخى الهلاك عن زمن مكثه بينهم، فيتجه الذهن إلى أن الله لم يبادر بإهلاكهم، بل أمهلهم واستدرجهم، لينزل بهم أشد العذاب وأقساه.

فلما اجتمع مع الفاء أمر زائد على الإثبات والتعقيب، وهو القيد بالحال، سلط التعقيب على هذا القيد، فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا**﴾ [طه: ٨٥ - ٨٦] حيث لم يكن رجوع موسى متعقبًا لوقوع الفتنة، وإنما كان رجوعه بعد تمام المدة التى ضربها الله لموسى، وهى أربعون يومًا، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ [البقرة: ٥١]. وقد استوفى الكلام فى هذه الفاء أبو السعود رحمه الله، فقال: («فرجع موسى إلى قومه» عند رجوعه المعهود، أى بعد ما استوفى الأربعين، وأخذ التوراة، لا عقيب الإخبار بالفتنة، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها، إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى: ﴿**غَضْبَانَ أَسِفًا**﴾، لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلة عليه حقيقة، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقدر مشهور، لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلت: شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة، فرجعوا سالمين، فإن أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد، لا رجوعهم إثر الدعاء، وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة، لا باعتبار نفس الرجوع)[1].

هذا الكلام الدقيق ينقصه أن نقول: إن غضب موسى على قومه لم ينقطع، منذ سماعه بافتتانهم حتى عاد إلى قومه، بل ظل حيًا تموج به نفسه، ويغلى الدم فى عروقه، من حماقة قومه وسفههم، مما جعله يلقى الألواح ويأخذ برأس أخيه فور عودته، ودخول «ثم» بين علمه بعبادة قومه للعجل ورجوعه إليهم، يذهب بجذوة هذا الغضب، كما أراد القرآن أن يصوره، فدخلت الفاء الدالة على اتصال رجوعه غاضبًا بعلمه، لتنقل لنا ثورة غضبه حيّة متأججة.

مثل هذه الفاء التى تحرّك زمن الماضى وتمطله إلى زمن المعطوف، نراها فى النظم الحكيم تحتكر المواطن التى يرتِّب الله فيها الإهلاك على تكذيب الأمم لأنبيائها، تركيزًا على استمرار التكذيب، والتمادى فى الكفر، بحيث لا تردهم عنه النذر، ولا تغنى الآيات حتى يحل بهم العذاب، وجميعها وقع فيها التكذيب والكفر بصيغة الماضى الذى مدّدت الفاء زمنه، ووصلته بنزول العذاب. وإليك بعضًا من نماذجها:

(١) تفسير أبى السعود ٦/ ٣٤.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٣].

تأمل التكذيب حين يقع بين فاءين، تجذبه الأولى للدلالة على المبادرة بالتكذيب دون ريث أو تأمُّل فيما يُدْعَوْنَ إليه للتعرف على وجه الحق فيه، وتمطه الفاء الثانية لتصله بوقت نزول العذاب، موحية بأنهم اعتادوه واستغرقوا فيه، حتى فاجأهم ما لم يكن فى حسبانهم، فأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

وهذه الفاء نفسها هى التى مدّت زمن الكدح، ومطلته، وخلعت عليه صفة الدأب والاستمرار فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. حاول أن تقطع المعطوف عن المعطوف عليه، وقل: إنك كادح إلى ربك كدحًا، فستجد أن المعنى قد تغيرّ، وصار تأكيد الكدح مقطوعًا عن الزمن، وحاول ثانية أن تضع الواو موضع الفاء، فتقول: «وملاقيه» فإنك ستضيف إلى تأكيد الكدح خبرًا آخر بوقوع الجزاء عليه، ويكونان خبرين مستقلين. ثم حاول أخيرًا أن تضع حرف المهلة بدلاً من الفاء لتقول: ثم ملاقيه، فسوف ترى أنك وضعت فاصلاً زمنيًا يقطع الكدح عن لقاء الله ومجازاته، فإذا عادت الفاء إلى مكانها اتصل الكدح بلقاء الله أو بمجازاته، على النحو الذى أراده الله من بيان الحكمة فى خلق الإنسان ليعمر الأرض بكفاح دائم متصل، لا ينقطع إلا بانقطاع آخر أنفاسه. يكدح مستيقظًا، ويكدح ذهنه باستعراض همومه نائمًا، ويتواصل العمل والكفاح، إلى أن ينتقل المرء من دار العمل إلى دار الجزاء. وذلك هو إشعاع حرف التعقيب فى موقعه هذا من القرآن المجيد.

هذه الظلال للفاء تجدها فى قوله تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [البقرة: ٢١٣] حيث عطف «هدى الله الذين آمنوا» بالفاء على «اختلفوا» وبينهما أزمان طويلة، فأومأت الفاء بقدرتها على مطّ زمن الفعل المعطوف عليه إلى أن هذا الخلاف قد طال أمده، واستمر بين أهل الكتاب حتى جاء الإسلام، فهدى الله المؤمنين إلى الحق فيما ظلوا فيه مختلفين، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب التحرير والتنوير، غير أنه لجأ إلى تقدير محذوف أفصحت عنه الفاء، وهو فى نظرى تقدير غايته تصوير المعنى وتقريبه، وإلا فإن الفاء دلّت عليه بوصلها زمن الاختلاف بزمن الهداية، فكان هذا الاتصال دليل بقاء الاختلاف إلى زمن المعطوف. يقول الشيخ ابن عاشور (هذا العطف يحتمل أن الفاء عاطفة على «اختلفوا فيه» الذى تضمنته جملة القصر. قال ابن عرفة: عطف بالفاء إشارة إلى سرعة هدايته المؤمنين بعقب الاختلاف. اهـ. يريد أنه تعقيب بحسب ما يناسب سرعة مثله، وإلا فهدى المسلمين وقع بعد أزمان مضت، حتى تفاقم اختلاف اليهود، واختلاف النصارى. وفيه بعدٌ لا يخفى. فالظاهر عندى أن الفاء فصيحة، لما علم من أن المقصود من الكلام السابق التحذير من الوقوع فى الاختلاف، ضرورة أن القرآن إنما نزل لهدى المسلمين للحق فى كل ما اختلف فيه أهل الكتب السالفة، فكأن السامع ترقب العلم بعاقبة هذا الاختلاف، فقيل: دام هذا الاختلاف إلى مجىء الإسلام، فهدى الله الذين آمنوا.. إلخ. فقد أفصحت عن كلام مقدر، وهو المعطوف عليه المحذوف، كقوله تعالى: ﴿ **أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ** ﴾[1] [الأعراف: ١٦٠].

فنحن نتفق معه فى الدلالة على دوام الاختلاف واستمراره إلى الزمن الذى هدى الله فيه المسلمين إلى الحق، ولكننا نختلف معه فى تقدير فعل محذوف، ونرى أن الدوام لازم الاتصال بين الفعلين بأداة التعقيب، فهو تقدير معنى لا تقدير إعراب.

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣١١.

الفاء وَطَىُّ الحدث

● **احتفاء البلاغيين بهذه الفاء**

الفاء التى تطوى الأحداث هى التى أطلق عليها النحاة وأهل البيان فاء الفصيحة، وهى التى حظيت بفضل عناية فى الدرس البلاغى عند الحديث عن حذف الجملة فى باب الإيجاز.

تحدث عنها السكاكى ولفت النظر إليها، ودعا إلى تأمل أسرارها، فقال: «وانظر إلى الفاء التى تسمى فاء فصيحة فى قوله تعالى: ﴿**فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ٥٤] كيف أفادت: فامتثلتم فتاب عليكم. وفى قوله: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ**﴾ [البقرة: ٦٠]، مفيدة: فضرب فانفجرت. وتأمل قوله: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ**﴾ [البقرة: ٧٣]. أليس يفيد: فضربوه، فحيى، فقلنا كذلك يحيى الله الموتى»[(١)] ثم قال: (وإنه فن من البلاغة لطيف المسلك. ومن أمثلة الاختصار قوله تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّبًا**﴾ [الأنفال: ٦٩]. بطىّ: أبحت لكم الغنائم، لدلالة فاء السببية فى «فكلوا» وقوله: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**﴾ [الأنفال: ١٧]. بطى: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم، فعدوا عن الافتخار، لدلالة الفاء فى «فلم»)[(٢)].

فالسكاكى يرى فى الفاء المفصحة عن محذوف ضربًا رفيعًا من البيان وفنّاً من البلاغة لطيف المسلك على حد تعبيره، والنص الأول من النصَّين اللذين نقلناهما يقطع بأن الفاء التى تفصح عن معطوف عليه محذوف تسمى فاء فصيحة، أما التى تدل على شرط مقدر، فليس فى كلامه ما يقطع بتسميتها فصيحة، أو يقطع بحرمانها من شرف الفصاحة، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأنه يخص الفاء الفصيحة بما كانت عاطفة على محذوف، ويخرج منها الفاء الدالة على شرط مقدر.

---

(١) مفتاح العلوم ١٥٦.

(٢) مفتاح العلوم ١٥٦.

وهذا ما حكاه السيد الشريف فى شرحه للمفتاح وعارضه، فقال: (فَتُوُهّم من ذلك أن تقدير الشرط ينافى عنده كون الفاء فصيحة، وأيّده بعضهم بالنقل عنه، والصواب خلافه، لأن العَلَم عندهم فى الفصيحة قول الشاعر:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وهو بتقدير الشرط، أى إن صح ما قالوا فقد آن القفول، لأنا جئنا خراسان)[1] سبب التوهم هذا يرجع إلى أن السكاكى فى الآيات الثلاث من سورة البقرة قدَّر فيها المحذوف معطوفًا عليه، وصرّح بأن هذه الفاء تسمّى فصيحة، ثم خصّها بقوله: «انظر» و «تأمل» وهى تعبيرات تدل عند السكاكى على فضل عناية، ولم يقل مثلها في الفاء المجاب بها عن شرط محذوف، بل قال فيما مثّل له منها: «لدلالة فاء التسبيب» أو «لدلالة الفاء» دون أن ينعتها بالفصيحة.

أما صاحب الكشاف فعلى العكس من صاحب المفتاح، نراه يصرّح بأن الفاء المفصحة عن شرط محذوف تسمى الفاء الفصيحة، وقال عنها: إنها من أحاسن الحذوف، ولم يأت فى تفسيره ما يقطع بإجراء هذا الوصف على الفاء العاطفة على جملة محذوفة، أو نفيه عنها، مما جعل شراحه يختلفون فى تحديد رأيه فيها.

فهذا القطب التحتانى يقول فى حاشيته على الكشاف: (فالفاء الفصيحة على رأى المصنف، هى التى دلت على محذوف. وهو سبب لما بعدها، سواء كان شرطًا أو معطوفًا عليه)[2].

والطيبى فى فتوح الغيب، يعلق على قول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [البقرة: ٧١] («فذبحوها» أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها)[3] قال الطيبى تعليقًا

(١) المصباح ٢/ ٤٦١.
(٢) حاشية القطب التحتانى على الكشاف ١/ ٢٢٧
(٣) الكشاف ١/ ٢٨٨.

على ذلك: (الفاء فى قوله «فذبحوها» كما قدرها المصنف فصيحة، دالة على أنهم سارعوا فى الذبح، ولم يتوقف امتثالهم أمر الله عند تحقق التمييز لمحة)[1] والمقدر هنا -كما ترى- جملة معطوف عليها.

والسعد فى مطوله بعد أن ذكر وجهى الزمخشرى فى تقدير المحذوف، من قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ**﴾ [البقرة: ٦٠]. وهما: (فضرب) والفاء عاطفة على محذوف، و(فإن ضربت) والفاء معه واقعة في جواب شرط مقدر، قال السعد: (وظاهر كلام الكشاف أن تسميتها فصيحة، إنما هى على التقدير الثانى، هو أن يكون المحذوف شرطًا)[2] على حين أطلق السعد الفصيحة على الفاء العاطفة على محذوف، فى قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ**﴾ [**البقرة: ٧٣**]. حيث ذكر عبارة الزمخشرى: «والمعنى: فضربوه فحيى» وعلق عليها قائلاً: (يعنى أن حذف «ضربوه» المعطوف على «قلنا» سائغ مقرر فى الفاء الفصيحة فى «فحيى»، وهاهنا قد حذف الفاء الفصيحة مع المعطوف)[3].

ويرى الزركشى أن الفاء الفصيحة هى العاطفة على محذوف، لا المجاب بها عن شرط محذوف. قال: (ومن حذف جواب الفعل: ﴿**اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ**﴾ [الفرقان: ٣٦]. تقديره: فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم. والفاء العاطفة على الجواب المحذوف هى المسماة عندهم بالفاء الفصيحة)[4].

وفى كليات أبى البقاء: (هى التى يحذف فيها المعطوف عليه، مع كونه سببًا للمعطوف، من غير تقدير حرف الشرط. قال بعضهم: هى داخلة على جملة مسببة عن جملة غير مذكورة، نحو الفاء فى قوله «فانفجرت»)[5]. وقال أيضًا: (وإن كان المعطوف شرطًا لا تسمى فصيحة أيضًا، بل تسمى جزائية، سواء حذف المعطوف عليه أم لم يحذف»)[6].

---

(١) فتوح الغيب ج١ ورقة ٩٤.
(٢) المطول ٢٨٩.
(٣) حاشية السعد على الكشاف ١/ ٣٦٨.
(٤) البرهان ٣/ ١٨١.
(٥) الكليات ٣/ ٣٢٥.
(٦) السابق ٢/ ٣٢١.

أطلت الحديث حول الخلاف فى مُسمّى الفاء الفصيحة، لما تحمله هذه التسمية من دلالة على أن الوصل بها يتميز بوجوه من البلاغة، لا توجد على كمالها فيما وصل من الكلام بغيرها، ويكفى أن يقول عنها الزمخشرى: (لا تقع إلا فى كلام بليغ)[1] وهؤلاء الذين أخرجوا الفاء الدالة على شرط مقدر من فاء الفصيحة عللوا ذلك بأن فاء الجزاء يكثر وقوعها فى الكلام العامى[2] فلا ترقى إلى ما يختصّ به كلام البلغاء. ومن هنا تدرك سبب تسميتها فصيحة، لأنها (يستدلّ بها على فصاحة المتكلم، يقال: كلام فصيح، وكلمة فصيحة، وصفت الفاء بها على الإسناد المجازى، كما وصف القرآن فى قوله تعالى: ﴿**ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: ٥٨] بصفة من هو سببه، وإنما اختصت بكلام البلغاء، لأن المراد من الحذف الدلالة على أن المأمور لم يتوقف عن اتباع الأمر)[3].

والحق أن حرمان فاء الجزاء الدالة على شرط مقدر من لقب الفصيحة، بعد أن كشف جار الله الزمخشرى عن روائعها فى النظم الحكيم، هو عدوان على هذه الفاء، وغفلة عما تنشره فى مواقعها من لطائف الأسرار، كما سيأتيك فى موضعه. ودعوى أنها تَرد فى الكلام العامى أمر لا يؤبه به، لأن الفاء العاطفة على محذوف هى كَذلك ترد فى كلام عامّى، وليست الفصاحة فيها راجعة إلى مجرد إنبائها عن محذوف، وإنما الفصاحة تكمن فيما وراء الحذف من إشارات لا يفطن إليها غير البلغاء، ولا يضعها فى كلامه موضعها إلا متحدث بليغ، وفاء الجزاء المنبئة عن شرط محذوف، حافلة فى الكتاب العزيز بالأسرار التى استحقت أن يقول فيها الزمخشرى إنها من أحاسن الحذوف، ولا أعتقد كذلك أن صاحب الكشاف يضن باسم الفصيحة على الفاء العاطفة على محذوف كما فهم البعض، بل أرى فى عبارته التى جوز فيها الوجهين عند قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ**

(١) الكشاف ١/ ٢٨٤

(٢) انظر تحفة الإشراف فى كشف غوامض الكشاف ١/ ٢٦٨.

(٣) تحفة الأشراف ١/ ٢٦٨.

لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ ﴾ [البقرة: ٦٠]. أرى أن الأظهر فى عبارته إطلاق الفصيحة على ضربيها كليهما، قال فيها: (الفاء متعلقة بمحذوف، أى فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا فى قوله «فتاب عليكم»، وهى على هذا فاء فصيحة)[1]. فالضمير فى قوله: «وهى على هذا» راجع إلى «الفاء» فى قوله فى أول العبارة: «الفاء متعلقة بمحذوف» فالوصف بالفصيحة يشملها بضربيها، ولا قرينة على اختصاصها بواحد منهما. وقد أحسن السيد الشريف حين قال تعليقًا على العبارة السابقة: (فإنه إشارة إلى الوجهين، فقوله: «وهى على هذا» أراد به أن الفاء على كونها متعلقة بسبب محذوف -شرطًا كان أو غيره- تسمى فاء فصيحة، وذلك إما لإفصاحها عن محذوف، وإما وصف لها بوصف صاحبها، وإما لكونها مفيدة معنى بديعًا، وواقعة موقعًا حسنًا)[2].

ووصْفُها بالفصاحة على طريق التجوز بإرادة صاحبها، لما تومئ إليه من معان بديعة هو -فى رأيى- الأليق بها، وليس إفصاحها عن محذوف، لأن الفاء ليست وحدها التى يصاحبها الحذف، فقد وقع الحذف مع الواو فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النمل: ١٥] فاختصاص الفاء بهذا الوصف مع اشتراك غيرها معها فيما سميت بسببه لا مُسوّغ له. ثم إن الوصف بالفصاحة على إطلاقه لا يدل على الحذف، وإنما يدل عليه بتقدير قيد يحدده سياقها، لا حقيقة معناها، وحمل الألفاظ على دلالاتها المطلقة، أولى من تكلف قيود تحدد معناها على غير ما يتبادر منها. وأخيرًا فإن هذا الوصف هو الذى يعكس ما امتلأت به فى مواقعها من أسرار بيانية.

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٤.

(٢) المصباح فى شرح المفتاح ٢/ ٤٦٢

طيُّ المعطوف عليه

لعل أهم ما تمتاز به الفاء من بين حروف العطف هو كثرة الحذف معها، لذلك كثر ورود الفاء فى القصص القرآنى حين تتكرر القصة مبنية على الإيجاز بطيّ بعض أحداثها، اعتماداً على ذكرها فى موضع آخر، وَرَعْيًا لمناسبة خاصة، تقتضى إبراز بعض الأحداث، وحذف بعضها الآخر، وقد كثر ورود هذه الفاء فى السور المكية قياسًا إلى السور المدنية، لابتناء السور المكيّة على القصد فى اللفظ، حيث كانت أكثر خطاباتها موجهة إلى المشركين من العرب، وهم قوم تميل طبائعهم إلى الإيجاز، بخلاف السور المدنية حيث كثر فيها خطاب غير العرب كبنى إسرائيل، فأطنب معهم الحديث، إلى جانب طبيعة موضوعاتها الحافلة بالتشريعات والأحكام والمحتاجة إلى التفصيل(١).

ومن أبرز مواقع حذف المعطوف عليه، وأغناها بوجوه البيان، ما يكون المحذوف فيه جوابًا لآمر لا يُرَدُّ أمْره، كما فى قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ**﴾ [البقرة: ٦٠] وقوله: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ [الشعراء: ٦٣].

فمن المعلوم أن انفجار الحجر، وانقلاب البحر، مرتبان فى الظاهر على الضرب بالعصا. لا على الأمر بالضرب، إذ لو كانا مرتبين على الأمر، لوجهه الله تعالى إلى الحجر والبحر مباشرة، كما قال تعالى للنار التى ألقى فيها إبراهيم عليه السلام: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الأنبياء: ٦٩]. لكن الله تعالى أراد بتوجيه الأمر بالضرب إلى موسى أن يكون أثر الضرب معجزةً ظاهرة له، يجريها على يديه، مع اليقين بأن الضرب بالعصا سبب ظاهر وليس

(١) يراجع العطف فى القرآن الكريم -رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية، وفيها إحصاء دقيق لنسب العطف بالفاء فى السور المكية والمدنية ص٦.

مؤثرًا حـقيقـيّا، إلا أنه لو حدث بأمـر التكوين المباشـر من الله تعالى، دون أن يكون فعل موسى سببًا ظاهرًا، لما كان ذلك آية لموسى عليه السلام.

فلما أراد الله تعـالى حكاية معجزتى مـوسى هاتين، قصَّهمـا على الوجه الذى يحقق صورة المعجـزة، وحقيقة أمر التكوين، فكان قوله: «اضـرب بعصاك» دليلاً على ارتباط الأثر بالمؤثر الظاهر، وهو الضرب. وفي طىّ الضرب الواقع من موسى عليه السلام، إشعارٌ بأن انفجار الحجر، وانقلاب البحر، كانا فى حقيقتهما مطاوعة لأمر الله تعالى، لا تأثرًا بضرب العصا، فليست فى العصا قدرة ذاتية تتميز بها عن غيـرها من العِصِىّ، وإنما هى قارنت قـدرة الله تعالى المؤثرة، لتكون سببًا ظاهرًا، تربط فيه الأعين والعقـول بين الأسباب ومسبباتها. فـفى حذف ضرب موسى حثٌّ للعقول على الربط بين الأثر والمؤثر الحقيقى، حتى يدفع الوهم بأنه فى عصا موسى يقبع الإعجاز، والحقُّ أنه بأمر الآمر كان الانفجار والانفلاق.

أضف إلى ذلك ما يدل عليـه هذا الحذف، من سرعة تلبيـة موسى لأمر ربه، حتى لكأن الفعل وقع منه لحظة سـماع الأمر من ربه، دون تلعثم أو تردد، وفى طيات ذلك مـعنى الطاعة وحـسن الاستجـابة من ناحيـة، والرغبـة الشديدة من موسى فى هذا الفعل، الذى حقـق له ما ضـرع به إلى ربـه، فأسـرع إلى تحقيـق ما رغب فيه. وإلى هذا ذهب السيد الشريف فى بيان نكتة الحذف فى آية البقرة، فقال: (ففى حذف المعطوف عليه فى قوله «فـانفجرت» تنبيه على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه لا يحتاج إلى الإفـصاح به، لانتفاء الشك فيه، وعلى أن السـبب الأصلى فى الانفـجار هو أمـره تعـالى، لافعـل موسى عليـه السلام، ولا شك أنه لا يهتدى إلى أمثال هذه الدقائق غير البلغاء)[1].

وكأن السيد الشريف -رحمه الله- يضيف بجـملته الأخيرة إلى الفاء الفصيحة التى لا ينطق بهـا إلا بليـغ شرفًـا آخـر، وهو أنه لا يهـتـدى إلى أسـرارها من المخاطبين غيرُ البلغاء.

(١) المصباح فى شرح المفتاح ٢/ ٤٦٢.

وللقطب التحتانى عبارة دقيقة فى سر حذف فعل الضرب جاء فيها: (دلّ على أن المطلوب بالضرب الانفجار لا الضرب، فلهذا حذف الضرب، وصرح بأثره، هو الانفجار)[1].

وفى ذلك إلماح إلى أن الغرض من توجيه الأمر بالضرب هو حدوث الانفجار، وكأن الحجر انفعل انفعالاً ذاتيّا، وحقق ما أراده الله فور سماع أمر الضرب لموسى.

أما تقدير الشرط هنا على الوجه الثانى الذى ذهب إليه الزمخشرى على معنى: فإن ضربت فقد انفجرت، فإنه يذهب بهذه اللطائف كلها، حيث يتوقف الانفجار على الضرب، بعد أن كان منفعلاً بالأمر الصادر من الله تعالى. ثم إنه يشعر بأن امتثال الأمر بالضرب من موسى أمر محتمل بتعليقه الجواب على الشرط، على ما فى التقدير بإن، وما تشعر به من أن الضرب غير مقطوع بوقوعه، مما لا يليق بمقام النبوة. وهو ما وهَّنَه أبو السعود بقوله: (وأما تعلق الفاء بمحذوف، أى فإن ضربت فقد انفجرت، فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم، كما لا يخفى على أحد)[2].

مثل هذا من طىّ السبب، وترتيب المسبب على الأمر نجده فى قوله تعالى فى قصة موسى مع السحرة: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ**﴾ [طه: ٦٥ - ٧٠].

الفاء فى «فإذا حبالهم وعصيهم» مفصحة عن سبب محذوف، تقديره: فألقوا. وقد طواه النظم الحكيم ليصور بهذا الطى سرعة إلقائهم، ويكشف عن رغبتهم فى المبادرة بالإلقاء. وهو الذى أشعر به تغييرهم لطريقة النظم فى

(١) حاشية القطب على الكشاف ١/٢٢٨.
(٢) تفسير أبى السعود ١/١٠٦.

قولهم: «إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى». فلم يقولوا: وإما أن تلقى ليتناسب مع ما قبله، بل زادوا فيه «أول» ليُحمّلوه حرصهم على السبق فى الإلقاء كما عدلوا عن المضارع إلى الماضى «ألقى» وكأنهم بادروا بالفعل إلى الإلقاء بحيث لو جاء جوابه على غير هواهم لخالفوه. وإنك لتحس مع حذف إلقائهم والمبادرة إلى ما ترتب عليه، أنهم لم ينتظروا من موسى جوابًا، وأن تخييرهم له كان لونًا من الخداع السياسى، ليظهروا أمام الجموع المحتشدة بمظهر الواثق من الغلبة، الذى لا يبالى أن يبدأ المعركة أو يبدأها عدوه، هم يعالجون بهذا التظاهر خوفًا دفينًا، وتوتُّرًا ملك عليهم أقطار أنفسهم، إنها سطوة الحق، تنفذ إلى قلوب أهل الباطل، فتشيع فيهم الرعب والخوف، مهما تستروا بمظاهر القوة.

وفى نهاية المعركة توحى الفاء فى قوله تعالى: «فألقى السحرة سجدًا» بطيّها إلقاءَ موسى لعصاه، وترتيبها خضوع السحرة وإيمانهم برب موسى وهارون، على أمر الله تعالى لموسى بالإلقاء دون الإلقاء نفسه، يوحى ذلك بأن الله تعالى هو الذى أدار المعركة كما أراد، وأنهاها بأمره، لا بفعل موسى، فأخفت الفاء بما صاحبها من الحذف صورة موسى عليه السلام، ليظهر الله بجبروته وكبريائه، ويفعل بالسحرة ما يريد، لذلك لم يقل السحرة آمنا بهارون وموسى، لأنهم أدركوا أن ما شاهدوه فعلُ الله لا طاقة بشر، وأن موسى بعصاه لم يكن ليغلبهم، وإنما الذى هزمهم وأبطل سحرهم هو رب موسى، فكان قولهم: «آمنا برب هارون وموسى» صوت الإيمان الحقيقى المذعن لسلطان الرب، وليس أثرًا لهزيمة فى معركة.

وإذا أردت أن ترى جلال الإعجاز فى هذا النظم، وكيف يموت هذا الحدث، وينطفئ شعاعه حين تنطق بهذه المحذوفات، كما قدرها البيضاوى: (أى فألقى فتلقفت، فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر، وإنما هو من آيات الله، ومعجزة من معجزاته)[1].

(١) تفسير البيضاوى ٦/ ٢١٥.

لقد حسم الله المعركة قبل أن يبدأ موسى الإلقاء، حين جعل العصا تنفعل بأمر الله، وتنهى المعركة قبل أن يمسك بها موسى، كما صوَّر ذلك النظم الحكيم فى تركيب يتعانق فيه إعجاز النظم مع إعجاز الحدث: «وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا» فَجَزْمُ الفعل «تلقف» فى جواب الأمر بالإلقاء يدل على استجابة العصا لأمر الله، وتنفيذها ما أراد، فى الوقت الذى وجه فيه الأمر لموسى، فلم يكن هناك داع لذكر إلقاء موسى، ولا إلى ذكر ما فعلته العصا من لقْف حبالهم وعصيهّم، كما جاء فى سورة الشعراء: ﴿**فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ**﴾ [الشعراء: ٤٥] فها هنا تصوير لجلال المحْدث، وفى الشعراء تصوير لجلال الحَدَث. وفى الفرق بينهما تكمن فروق النظم فى السورتين، هو سر من أسرار الإعجاز فى قصص القرآن، حيث تتنوع زوايا التصوير وتختلف نقاط التركيز، ويلمح النظم إليها بتغييرات دقيقة فى ألفاظها، جليلة فى مغزاها.

إن خوارق الأحداث، واستيلاءها على العقول والقلوب، لا تترك مجالاً لمن هُمْ فى موقع الحدث للتأمل فى وقائعها، وربط الأسباب بمسبباتها، فإن روعة المشهد، وخروجه عن طاقة البشر يُعجز الفكر بنفس القدر الذى يُعجز به اليدَ واللسان. وحينئذ يكون ذكر الأفعال المطوية -على ما قدَّره البيضاوى- بحركتها البطيئة عبئًا يتثاقل به النظم عن تصوير جلال هذا الحدث، ومواكبة مشاهده السريعة المتلاحقة.

لقد كان تحقق السحرة من عجزهم، والإيمان بأن ما يشاهدونه آية من آيات الله مقترنًا بوقوع الحدث، لا متعقّبًا له، وما كان جلال المعجزة بحاجة إلى وقت -ولو جدَّ قصير- لإعمال العقل والاستدلال على كونها من عند الله. ذلك ما صورته الفاء بطيّها من الأحداث ما يثقل حركة الألفاظ عن مواكبة هذا الإعجاز.

ألا ترى إلى قوله تعالى فى تصوير المعجزة التى أجراها الله تعالى على عين العُزير، كيف يربط فيها تبيُّنه لقدرة الله تعالى بالحدث ذاته، لا بتأمُّله والنظر فيه.

لأنه أعظم من أن يحتاج إلى تأمل واستدلال به على قدرة محدثه!! ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٩].

تأمّل قوله: «فلما تبيَّن له» كيف رَتَّبت فيه الفاءُ اتّضاحَ حقيقة قدرة الله تعالى أمام العُزير على الأمر بالنظر إلى المشاهدات، وما يجريه الله تعالى عليها من آثار القدرة، دون أن يترك له مهلة من الزمن يعرض فيها ما شاهده على فكره، قبل إقراره بقدرة الله، تجسيدًا لجلال الحدث، وكونه ليس بحاجة إلى فكر فى الشهادة على قدرة محدثه. إن تقدير الأفعال على نحو ما جاء فى روح المعانى: (فأنشرها الله تعالى، وكساها لحما، فنظر إليها، فتبين له كيفيته، فلما تبين ذلك)[٢]. لا يعدو أن يكون تصورًا عقليّا لتعاقب الأفعال، والربط بين الأسباب والمسببات، لكن هذا التصوّر لا يرتفع إلى مستوى الحدث المعجز، لأن الله لم يوقع آثار قدرته على العظام نشرًا وكساء بعد أَمْر العزير بالنظر، بل كان فعله تعالى مصاحبًا للأمر، لأن تعلق إرادة الله بالأشياء على سبيل الإيجاد هو تعلق تنجيز، هذا هو السر فى طىّ الموجودات التى قدرها الألوسى، وهى: فأنشرها، وكساها لحما، لأنها وجدت مصاحبة للأمر لا بعده، ثم إن هذه الأحداث الخارقة لا تحتاج عند من يشاهدها إلى بحث واستدلال، ليتبين قدرة من أجراها، حتى يقدر: «فتبين له كيفيته».

إن خوارق العادات حين تقع فى أحداث الكون، إنما تقع بسرعة تعجز فيها ألفاظ الحكاية عن مواكبة المَحْكى بمثل هذه التقديرات التى توقف وثبة الفكر، وتعوق حركته عن ملاحقة الأحداث، لذلك يقابل الله فى حكايتها إعجاز الحدث

(١) روح المعانى ٣/ ٢٣.

بإعجاز النظم، حين يحكيه بهذه الفاء التى تتخفف من كل ما يبطئ بها عن مجاراة المحكى، فكان طىّ ما قدروه إعجازًا يعانق إعجاز الحدث.

فإذا كان من رَصْدٍ وتأمل ففى أثره على المُشاهد، ومراقبة انفعاله بالأحداث وحركتها فى نفسه، وهو ما يصنعه القرآن حين يطيل الوقوف بعد حكاية المعجزة، لينقل انعكاساتها على من شاهدها. والمثال على ذلك قوله تعالى في حكاية ما دار بين سليمان عليه السلام والملأ من جنده: ﴿**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

فإن الفاء فى قوله «فلما رآه» فى طيّها للأحداث ما بين قول العالِم بالكتاب، ورؤية سليمان للعرش مستقرّا عنده، تجاوبت فى القصّ مع سرعة وقوع الحدث، فما يستغرقه ارتفاع الطَّرْف وانخفاضه من الزمن، دون زمن النطق بفعل واحد، فأنت إذا حكيت أفعالاً تمثّل ما صنعه هذا القائل لإحضار العرش مات الحدث بين يديك، ولم تواكب حركةُ العقل فى تصورها للحدث سرعة وقوعه. وحاول أن تضع هذه الأفعال التى قدرها أبو حيان، مما طوته الفاء فى موضعها من النظم، وهى: (فدعا الله فأتاه به)[1] فستحسّ عندئذ بأن القصّ على هذا النحو أشبه بمن يرصد قمرًا صناعيًا بأقدم آلة رصد صنعها الإنسان، فسرعان ما يكتشف الراصد أن القمر قد أفلت منه قبل أن يُدير آلته.

إن آية الآيات فى القرآن أنه يمسك بمفاتيح عقول المخاطبين ونفوسهم، فيضبط إيقاعها بما يتناسب مع حركة الأحداث، وهو حين يطوى جزءًا منها، فإنما يثب بالعقل والنفس وثبات تقربهما من الحدث، وتتيح لهما القدرة على مواكبته. فلما كان ارتداد الطرف، وهو حركة طبيعية تلقائية، لا يستغرق من الزمن ما يسمح

(١) البحر المحيط ٧/ ٧٧.

بحكاية دعاء مَن عنده علم الكتاب، والإخبار بإتيانه بالعرش، وثب النظم من عرضه إحضاره إلى رؤيته مستقراً عند سليمان، ليتصور القارئ مدى السرعة التى لم تستغرق من الزمن شيئًا، وركَّز على أثر هذه النعمة فى نفس سليمان، وكيف قابلها وانفعل بها، وهو ما أطال النظم الوقوف عنده.

وانظر إلى بلاغة الحذف، حين ينقلك من تفكير قوم إبراهيم عليه السلام فى قتله وإحراقه، إلى يد الله تتلقف نبيه الكريم، وتنقذه من نار قومه، دون أن تريك أيدىَ الآثمين، وهى ترتكب جرمها: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ**﴾ [العنكبوت: ٢٤]. فقد طوت الفاء حدثًا رهيبًا، وجرمًا مروّعا، هو كما قدره المفسرون: (فقذفوه فى النار)[1] لأن الإنجاء أعقب القذف فى النار، لاقولهم، ووراء هذا الحذف إيماء إلى أن ما قالوه لم يكن تهديدًا أو مجرد تفكير، وإنما كان تصميمًا وإصرارًا، وفى الانتقال من حكاية قولهم إلى الإنجاء مباشرة إشارةٌ إلى أن الله تعالى كان أسرع إلى إنقاذ نبيّه منهم إلى إلقائه فى النار، وأن خليل الله وقع فى يد ربّه قبل أن يقع فى أيديهم ليقذفوه فيها، فنشرت الفاء بهذا الطَى غلالَة من قدرة الله تعالى، ورعايته لنبيه، غطَّت على فعلهم، لتظهر يد الله القوية الغالبة، وتتوارى أيدى القوم الآثمة.

ومن روائع أمثلة هذا الطى فى الذكر الحكيم، مما يذهب ذكره بسر إعجازه، قوله تعالى حكاية لما جرى بين إخوة يوسف وأبيهم: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ [يوسف ١١ - ١٥].

فقد طوت الفاء فى قوله «فلما ذهبوا» موافقة يعقوب عليه السلام، وإذنه بخروج يوسف مع إخوته، وقدر المفسرون الفعل الذى عطفت الفاءُ عليه:

(١) الفتوحات الإلهية ٣/ ٣٧٣.

(**فأرسله معهم**)[1]. وفى هذا الطىّ إيماء إلى عدم رضا يعقوب عليه السلام واستكراهه عليه، وأن أبناءه غلبوه على أمره، فلو ذكر هذا المحذوف لمات هذا المعنى، وأوهم ذكره أن يعقوب قد اطمأن نفسا إلى وعود أبنائه، واستراح لها فأرسله معهم، وهو غير ما يوحى به قوله عليه السلام حين جاءوه بقميصه وعليه دَمٌ: ﴿**بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً**﴾ [يوسف:١٨]. وهو حديث المتَّهم لهم، فكان ذلك دليلاً على أنه لم يرسله معهم طوع نفسه، ورغبة منه، ففى ذكر الفعل المحذوف هنا زيادة ينقص بها المعنى، ورحم الله شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر حين قال فى الحذف: (فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن)[2].

هذا الطى الذى يبعث الحياة فى الأحداث، ويؤدى ذكر المطوى فيه إلى قطع تدفُّقها، وموت حركتها هو ما تجده فى قوله تعالى فى الحديث عن قصة موسى مع ابنتى شعيب: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٥].

أومأت الفاء فى قوله «فجاءته» إلى محذوف يستدل عليه العقل فى ترتيبه للأحداث. يقول ابن عطية: (فى هذا الموضع اختصار يدل عليه الظاهر، قدَّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء فى السعى، فحدثتاه بما كان من أمر الرجل الذى سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل الصغرى أن تدعوه له، فجاءت على ما فى هذه الآية)[3].

(١) تفسير الجلالين ٢/ ٤٣٩. (٢) دلائل الإعجاز ١٤٦. (٣) المحرر الوجيز ١/ ١٥٩

فلو ذكرت هذه الأفعال لضاع الغرض من ربط دعاء موسى عليه السلام -وشكواه حاله لربه فى قوله: «رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير» - بهذا الخير الذى ساقه الله إليه بمجىء ابنة شعيب، حيث كانت دعوة أبيها له ليجزيه أجر سقيه إجابةَ الله السريعة لهذا الدعاء. فطوى الله ما بينهما ليصل إجابته بسؤاله، تكريمًا لتجرُّد موسى، وبذله الخير ابتغاء مرضاته، وتحقيقًا لقوله عز وجل: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقد يطوى مع الحدث من الشخوص من ليس لهم أثر فى الأحداث، ومن لا يتصور منهم غير الانصياع وتنفيذ الأمر، حتى لا يثقل مسرح الأحداث بشخوص يحجبون الرؤية عمن يسهمون فى صنعها. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾ [يوسف: ٥٤].

فها هنا معطوف عليه محذوف، قدّره أبو السعود، وعلل لحذفه بقوله: (أى فأَتَوْا به، فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأن لم يكن بين الأمر بإحضاره، والخطاب معه زمان أصلاً)[1].

فالمسارعة من جند الملك بتنفيذ ما أُمِروا به شىء مفروغ منه، وذلك شأن الملوك مع عمالهم، لا يتصور العقل سوى الإسراع بتلبية ما أراد، وهذا الحذف من طبيعة الفاء الفصيحة، لكنها تزيد هنا مع طىّ فعل الإتيان إخفاء الشخوص التى لا أثر لها فى صنع الحدث، وهم الجنود الذين أحضروا يوسف، لأن ذكرهم يقلل التركيز على الحدث الأصيل، الذى أراد القرآن إبرازه، وهو الحوار الذى دار بين الملك ويوسف عليه السلام، لذلك كان الأمر «ائتونى به» غير موجّه إلى معين، فلم يقل: وقال الملك لملئه أو لجنده، وإنما أطلق الأمر ثقة بأنه سينفذ، ولا يعنيه من ينفذه. كما لا يحتفل القرآن بمن أتاه به، ولا بالإتيان المفروغ منه، حتى لا يصرف الذهن عن الغرض من إحضاره، أو يوزع النظر بين مشهد إتيانه ومشهد الحوار الذى دار بينهما. وهذه طريقة القرآن فى القصّ،

(١) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٦.

لا يذكر من المشاهد والأحداث إلا ما كان لبنة فى بنائها، ولا يذكر من الشخوص ما لا يسهم فى صنع أحداثها.

ومن بديع مواقع هذه الفاء قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٤]. فقد أشارت الفاء إلى فعل مطوى رتب عليه القضاء، وتقديره: «فأفطر» لأنه لا يجب قضاء الصوم إلا بالإفطار. وفي هذا الحذف تنبيه على أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، كما صرح بذلك عليه السلام، فكأن الإفطار مع المرض أو السفر أمر مفروغ منه، فمتى كان المؤمن مريضًا أو مسافرًا فعليه القضاء، لأن الشأن فيه أن ينصاع لرخص الله تعالى ويقبل هديته. وهذا ما أكده بعد ذلك بقول: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥].

فلم يكتف بالتصريح بإرادته اليسر حتى أكده بنقيضه، وهو عدم إرادته العسر، وليس للعابد إلا أن يمتثل لما أراده المعبود.

ومثله قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾ [البقرة: ١٩٦]. حيث أومأت الفاء فى قوله «ففدية» إلى محذوف تقديره: فحلق، إذ لا فدية عليه إذا لم يحلق، وقد حذف ترغيبًا فى التزام رخصة الله تعالى بالحلق، وافتدائه بما عيّنه الله تعالى من الصيام أو الإطعام أو الذبح. ذلك أن الله لم يفترض العبادات على عباده ليعذبهم بها، أو ليبدو العابد فى صورة رَثّة ترعى فى رأسه الهوام، وهو ما أكده الرسول ﷺ -فيما ذكره القرطبى- حين رأى كعب بن عجرة، وقمله يتساقط على وجهه فقال: «أيؤذيك هوامك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق»[1] فبحذف الفعل «حَلَق» بدا وكأن الفدية مرتبة على حدوث المرض أو الأذى، وأن الحلق فى مثل هذه

(١) تفسير القرطبى ٢/٧٥٦.

الحالة أمر مـؤكد. وفى ذلك من يسر الإسلام وسـماحته، وحرصـه على جمال مظهر العـابد، وفتح أبواب من الخير للمـحتاجين إلى الإطعام والذبح مـا يشهد بعظمة هذا الدين.

على أنه قد جـاء فى القرآن ما يبدو خروجًـا عن هذا الإلف فى دلالة الحذف معها على المسـارعة والامتثال، وذلك فى نهاية الحـوار الذى دار بين موسى عليه السلام وقـومه، فى شأن البقـرة التى أمرهم بذبحها، فـقال فيمـا حكاه الله بعد جدل منهم ومماطلة: ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [البقـرة: ٧١]. فهناك فعل مطوى أفصـحت عنه الفاء فى قوله «فذبحـوها» قدَّره الزمخشرى (فحصَّلوا البقرة الجـامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها)[١] وقد جرى الكشاف وشراحه على أن الغرض من الحذف فى مثل هذا الموضع الذى يرتَّب فيه المعطوف على الأمـر، هو الدلالة على المسارعـة والامتـثال فى فـعل ما أمـر به المخـاطب، لكن يكدّر على هذه النـكتة أن المـأمورين هنـا كانوا مـتـثـاقلين فى الاسـتجـابة، بدليـل هذا الجـدل الطويـل، وبدليـل قـوله تعـالـى: فى تذييـل الآية: «ومـا كادوا يفـعلون» وهو ما أورده الطـيبى، وردّ عليـه فى قوله: (فـإن قلت: الفاء فى قوله «فذبحوها» -كمـا قدرها المصنف- فصيحة، دالة على أنهم سارعوا فى الذبح، ولم يتوقف امتثالهم أمر الله عند تحقق التمييز لمحة، كما نصّ عليه فى الأعراف، فى قوله تعالى: «فاضرب بعصاك الحجر فانبجست»، وقولُه: «فافعلوا ما تؤمرون». وقوله: «وما كادوا يفعلون» تدل على تثاقلهم وتثبُّطهم فى الامتثال، فكيف التوفيق؟ وما معناه؟ قلت: المعنى سارعوا فى امتثال أمر الله عند ظهور الحق وتبين الحال، مع أن بشريتهم عند تبين الحال مانعة من الامتثال، لئلا يفضحوا)[٢].

(١) الكشاف ١/ ٢٨٨

(٢) فتوح الغيب ١ ورقة ٩٤

وأرى -والله أعلم- أن تقدير: فحصَّلوها على هذه الأوصاف لا داعى له، لأن قولهم «الآن جئت بالحق» دال على أن البقرة بهذه الأوصاف قد تعينت لديهم، فعرفوها، واستسلموا بعد طول مقاومة وتهرّب، وليست هذه هى الفاء الدالةَ على المسارعة والامتثال، وإنما هى أشبه بالفاء الداخلة على فعل المطاوعة من مثل: كسرته فانكسر، وذلك أنهم بعد أن حوصروا بالإجابات التى حددت البقرة تحديدًا كاملاً، حتى عرفوا البقرة وصاحبها، لم يعد أمامهم مفرّ من الانصياع، ففى الفاء رائحة القسر والإلجاء. وهو صريح: عبارة الطبرى فيما رواه عن ابن زيد، قال: (اضطروا إلى بقرة لا يعلمون على صفتها غيرها، وهى صفراء ليس فيها بياض ولا سواد، فقالوا هذه بقرة فلان «الآن جئت بالحق»)[1].

فالفاء، أشعرت بالإذعان والاضطرار. والمسارعةُ التى دلت عليها مسارعة الاستسلام والقهر، وليست مسارعة الامتثال، فالمبادرة بالذبح اندفاع بقهر الحجة وحصار الدليل، وما فى أنفسهم من التثاقل وعدم الرضا دليل افتعال الحدث، لا الانفعال به، فكما أنك إذا قلت: صرعته فانصرع، لا تسمى حركة المصروع مسارعة وامتثالاً، فكذلك الأمر فى الآية.

(١) تفسير الطبرى ٢/ ٢١٧.

فاء المفاجأة ووجه حسنها

ذكرالزمخشرى هذا المعنى للفاء التى تفاجىء الخصم بما لا يتوقعه من الحجة الملزمة، والأدلة الدامغة، التى تقطع العذر، وتنهى الحوار، وتدفع المخاطب إلى التسليم بمنطق المتكلم، وهذه الفاء غالبا ما تفصح عن شرط مقدر، وهى بهذا التقدير أجدر، لأن الشرط يستحضر منطق الخصم، ليبنى عليه حجته المفحمة، وهو فن من الجدل رفيع، فيه رائحة مما يسمى المذهب الكلامى، لأنك تبنى نتيجة على مقدمة سلم بها الخصم ونطق بها، ولما كانت النتيجة لازمة لما سلم به من المقدمات لم يكن أمام مخاطبك إلا التسليم بما فاجأته به، فهو كمن أُتِى من مأمنه، وفوجئ بالهجوم بعد التظاهر بالملاينة والتسليم بمنطقه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا**﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

يقول الزمخشرى فى الفاء من قوله «فقد كذبوكم»: (هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول) ونحوها قوله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ**﴾ [المائدة: ١٩] وقول القائل:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا)[1]

تعددت فى هذه الآية عناصر المفاجأة، أولها هذا الانتقال الفجائى من خطاب المعبودين إلى خطاب العبدة، وهو ما أشار إليه الزمخشرى بالالتفات، وهى مفاجأة تدهش الخصم وتذهب لبّه، والثانية بناء الحجة على منطق الخصم بما

(١) الكشاف ٣٠/٨٦

لا يستطيع معه الفكاك أو التفصىّ، لأنك تقول له: هذه حجتك قد أبطلناها فلم يعد أمامك سبيل للاحتجاج بها، وهذا ما تقوم به الفاء المشيرة إلى شرط مستمدّ من حجة الخصم، تقع هى وجوابها بمثابة النتيجة الملزمة، والتقدير: إن كنتم تدَّعون أن آلهتكم قد أضلتكم فها هى ذى تكذبكم، فلم يبق إلا أن تعترفوا بجرمكم، وتتحملوا عاقبة كفركم، فما يستطيعون صرفا ولا نصرا، والعنصر الثالث من عناصر المفاجأة حذف القول، وفيه من الحسن والخلابة ما يصور وقوع الحجة عليهم كالصاعقة التى لا يدرون منْ قَذَفَ بها، وكأن هذا القول حديث الكون كله، يحاصرهم ويمسك برقابهم.

وقد سمى الشهاب هذه الفاء فجائية، لأنها هى التى وَشَتْ بالمفاجأة.

قال الشهاب: (والفاء فجائية فصيحة، أى فقلنا: إن قلتم إنهم أضلونا إذ عبدناهم فقد كذبوكم)[1].

وهى التى قطعت العذر، وألزمت بالحجة، هؤلاء الذين يمكن أن يتخذوا من عدم إرسال الرسل مبررا لكفرهم، فكان مجيئهم دفعا لما عساهم يحتجون، وإلزاما لهم بتحمل وزر كفرهم، فى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ**﴾ [المائدة: ١٩] ففى الفاء إبطال لحجة أهل الكتاب، الذين فسدت عقيدتهم، بقولهم فى المسيح مقالة الكفر، وقطعٌ لعذرهم إن هم تعللوا بعدم إرسال الله لهم من يَردُّهم عن زيغهم، كأنه يقول لهم: إن اعتذرتم لأنفسكم بعدم مجئ البشير والنذير، فقد جاءكم البشير والنذير. ومثلها قوله تعالى فى قطع عذر المشركين حتى لا يدعوا أن الكتاب أنزل على اليهود والنصارى، ولم ينزَّل عليهم كتاب ﴿**أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**﴾ [الأنعام: ١٥٦- ١٥٧] وهو الذى قال فيه

(١) حاشية الشهاب٦/ ٤١٣.

الزمخشرى: (والمعنى: إن صدقتكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم، فقد جاءكم بينة من ربكم، فحذف الشرط، وهو من أحاسن الحذوف)[1].

وجه حسن الحذف هو الانتقال من حكاية احتجاج الخصم إلى حَجّهِ بحجته، ببناء آخر الكلام على أوله، والإسراع إلى تحقيق هذا الغرض بحذف الشرط الذى هو من مسلمات الخصم، وفيه من التبكيت والإلزام ما فيه. يقول العلوى فى حاشيته على الكشاف تعليقًا على عبارة الزمخشرى: (ثم بعد ذلك التفت إليهم بالخطاب تبكيتًا لهم، وإلزامًا، أى أنتم أولئك الذين تصلَّفتم وقلتم: كيت وكيت، فقد جاءكم مطلوبكم، فأين مقتضى قولكم؟ وساعد عليه حذف الشرط، ومن ثم قال: «وهو من أحاسن الحذوف» وقد سمى مثل هذه الفاء فى سورة الحجرات فاء فصيحة، وإن كانت جزائية لدلالتها على السرعة)[2].

لقد كان شيخ البلاغة أول من نبّه إلى دور هذه الفاء، وما تشى به من المعانى والأغراض، واكتفى فى ذلك بأن أشار إليها، وألمح إلى أنها واسطة العقد، فيما عدَّه من فرائد الكلام، حين قال: (ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد، بل أن تَفْلِى ديوانًا من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات، وذلك ما كان مثل قول الأول، وتَمثَّل به أبو بكر الصديق، رضوان الله عليه، حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الأعاجم:

تمنَّانا ليلقانا بقوم ... تخال بياض لأمهم السرابا

فقد لاقيتنا فرأيت حربا ... عوانًا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موقع «الفاء» فى قوله: «فقد لاقيتنا فرأيت حربًا».

ومثل قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع «الفاء» و«ثم» قبلها)[3].

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٢.
(٢) تحفة الأشراف ١/ ٧٨١.
(٣) دلائل الإعجاز ٨٩- ٩٠.

لم يكن عبد القاهر بصدد الحديث عن الفاء حتى يقف عندها، ويكشف عن أسرارها، وإنما كان يعدّد مزايا النظم، وكيف يقع الحرف موقعه، فينشر على سياقه من أردية الحسن ما يخطف الأبصار، ويسحر العقول. وإشارة خاطفة من رائد كعبد القاهر حَرِيَّة بأن تفتح أبوابًا للبحث، تدين فى كل ما تصل إليه لهذه اللمحة الخاطفة.

هذه الفاء فى البيتين اللتين تمثَّل بهما الصديق رضى الله عنه، تحمل من التهكم والسخرية، والتبكيت وإسكات الخصم، ما يجعل لها خلابة لا يحسّ بها إلا من اعتاد لسانه على ذوب هذه اللغة، وسرت فى عروقه أنسامها العبِقة.

هذا التبكيت تجده على أتمه وأروعه فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣].

ففى قوله «فقد رأيتموه» حملت الفاء من معانى التوبيخ والتبكيت ما تنوء بحمله جمل عدة، حيث عرّت المنهزمين من المؤمنين أمام أنفسهم، واستحضرت ما سجّلته ألسنتهم من الأمانى، لتظهر المناقضة الشديدة بين الأقوال والأفعال. فكم كانوا يتمنون لقاء العدو، ليظهروا من الجلد والشجاعة ما يباهى به الله عباده، وهاهم أولاء فى وقعة أحد، يرون الموت الذى تمنوه، فينكصون على أعقابهم. وقد مهد لهذا التوبيخ بقوله قبل هذه الآية: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل العمران: ١٤٢] يقول الخازن فى تفسيرها: (أم حسبتم أيها المنهزمون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا، وبذلوا نهجهم لربهم عز وجل، وصبروا على ألم الجراح والضرب، وثبتوا لعدوهم، من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم)[1].

ثم جاءت الآية بعدها لتعرّض (بأن ما سبق من تمنيهم الموت لم يكن عن رسوخ ويقين، وتفضيل للشهادة ولقاء الله على الحياة، وإنما كان فيه شائبة من

(١) تفسير الخازن ١/ ٢٨٧.

الغرور والزهو، وإرشاد توبيخى لهم ولأمثالهم أن يحاسبوا أنفسهم ويطالبوها بالكمال، الذى تأتى فيه الأعمال مصدقة لخواطر النفس وتمنياتها)[1].

الفاء فى «فقد رأيتموه» مفصحة عن شرط يمكن تقديره: إن كنتم صادقين فى تمنيكم لقاء العدو أو الشهادة فقد رأيتم الموت بأعينكم، فلم انهزمتم وتشبثتم بالحياة؟ وانظر قوله «من قبل ذلك» كيف يريك فرق ما بين الدعوى والفعل!

وإذا كانت فاء ابن الأحنف تحمل معنى التبرّم والمماطلة، واستنجاز الوعد بدلالاتها على تعليق الجزاء بالشرط كما ذهب إلى ذلك الأستاذ محمد نايل فيما نقله عنه الدكتور محمد أبو موسى[2]، فإن هذه الفاء بلغت الغاية فى الحسن فى قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦] فهؤلاء الذين يستقصرون الزمن يوم القيامة ويقسمون بأنهم ما قضوا فى دنياهم سوى ساعة واحدة، هم الذين كانوا يستبطئون هذا اليوم، وينكرون وقوعه، فأى تناقض هذا الذى فاجأتهم به الفاء؟! وأى تهكم وسخرية بمن كانوا بالأمس يسخرون ممن توّعدهم بهذا اليوم؟! وأية مرارة يشعرون بها، وقد أعجزتهم الحيلة فلم يُحيروا جوابًا كما لم يجدوا مهربًا؟! يقول الدكتور أحمد بدوى: (ألا تشعر بما حول هذه الفاء من استفهامات تثيرها، فكأن الذين أوتو العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث: ألا تزالون مصرين على إنكاره؟ وماذا أنتم فاعلون؟ وكيف تلقون ربّاً أنكرتم لقاءه)[3].

دلالة الفاء على الشرط هنا تحمل روح التشفى والسخرية من الذين أوتوا العلم بمنكرى البعث، وهم يقولون لهم: إن كنتم قد أنكرتم البعث، فها هو ذا قد وقع ما أنكرتموه، فماذا أنتم فاعلون وقد أحاط بكم العذاب؟

---

(١) تفسير المنار ٤/ ١٣١.
(٢) ينظر البلاغة القرآنية عند الزمخشرى ٣٤٢ ط أولى.
(٣) من بلاغة القرآن ٥٦.

ثم انظر إلى الاحتجاج بالقياس، وكيف يحمل المخاطبين على الإقرار والإذعان، ويوصد أمامهم كل أبواب الحيل، بعد أن أحاط بهم سلطان الحجة فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات: ١٢].

فإذا أردت أن تقف على سر الإعجاز فى الوصل بالفاء فاستبدل بها الواو، ليكون النظم: وكرهتموه، فستحس أنك قد سقطت من شاهق، وتفلَّتت من بين يديك حجة ألزمت بها الخصم، وأشهدت عليه الخلق، واستنفرت طباعهم ومشاعرهم ضده، فأنت بالواو تؤكد مفهوم إنكار الحب، وبالفاء تستدل على كراهية الغيبة، بالقياس على ما سلم به الخصم من كراهية مثله، وهو أكل لحم الأخ ميتًا، وفيه من الإلزام بالحجة مالا يستطيع المخاطب التفصى عنه، بعد أن شهد الناس جميعًا بكراهية ما شبهت الغيبة به، كما ينبىء عنه توجيه الخطاب إلى كل العقلاء فى قوله «أيحب أحدكم». فالفاء وحدها هى التى رتبت هذه النتيجة، واحتجت عليها بالمقدمة التى لا يجادل فيها أحد، بإخراجهما فى صورة الشرط والجزاء. ولا يضير بعد ذلك أن يختلف المعربون والمفسرون فى تقدير الارتباط بينهما، فإن الإلزام بالقياس قائم فى كل تقدير. فقد نقل ابن الشجرى فى أماليه عن أبى على الفارسى قوله: (وإنما دخلت الفاء فى الكلام من معنى الجواب، لأن قوله: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه» كأنهم قالوا فى جوابه: لا. فقال: «فكرهتموه»، أى: فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة، فهو جواب لما يدل عليه الكلام من قولهم: لا، فالفاء ها هنا بمنزلتها فى الجزاء، والمعنى على: فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة، وإن لم تكن «كما» مذكورة، كما أن قولهم: ما تأتينى فتحدثنى، المعنى: ما تأتينى فكيف تحدثنى، وإن لم تكن كيف مذكورة، وإنما هى مقدرة)[1].

(١) أمالى ابن الشجرى ٣/ ١٠٠.

هذا التقدير فى صيغة قياس تشبيهى حذف منه المشبه، وَدُلَّ عليه بالفاء الفجائية التى هى فى معنى الجزاء. وإن لم يكن معبرًا عن المحذوف بصيغة شرط، هذا التقدير من أبى على -رحمه الله- جاء مستلهمًا للمعنى، مستجيبًا لذوقه فى التعرف على طعوم الكلام. وهو فى نظرى أدق من تقدير الزمخشرى الذى كان أميل إلى الصناعة منه إلى الذوق، وإن لم يبعد بدلالة الفاء عما قاله أبو على. قال الزمخشرى: (عقَّب ذلك بقوله: «فكرهتموه» معناه: فقد كرهتموه، واستقر ذلك. وفيه معنى الشرط، أى إن صح هذا فكرهتموه، وهى على الفاء الفصيحة، أى فتحققت بوجوب الإقرار عليكم، وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره، لإباء البشرية عليكم أن تجحدوا كراهتكم له، وتقذركم منه، فليتحقق أيضًا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة، والطعن فى أعراض المسلمين)[1].

كلام الزمخشرى هذا يَحْجل حول ما قاله أبو على، وتقدير أبى على أحبّ إلىّ، وإن كان أبو حيّان جعل كلا التقديرين من عجرفة العجم[2]، مستحسنًا تقدير الفراء: «فقد كرهتموه فلا تفعلوه» وهو -فيما أرى- تقدير نحاة لا يَعتدُّ بمثله أهل البيان.

وتأمل كيف تداوى هذه الفاء جراح الرسول عليه السلام، وتجففّ مآقيه، حين تطوى له الزمن، وتنقله مما فعله معه أهل الكتاب، إلى ما فعلوه بنبيهم، ليرى ما استعظمه من سؤالهم إياه، إلى جانب ما سألوه نبيّهم حقيرًا تافهًا: ﴿**يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ [النساء: ١٥٣] فالفاء: طوت شرطًا قدره أبو السعود: (إن استكبرت ما سألوه منك. فقد سألوا موسى شيئًا أكبر منه)[3] وسر جمال هذه الفاء ما فيها من مفاجأة الرسول بما لم يكن يتوقعه، ونقله بسرعة من حاضر غريب إلى ماض

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٨.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١١٥.
(٣) تفسير أبى السعود ٢/ ٢٤٩.

أشد غرابة، والربطُ بين سؤالهم للنبى وسؤالهم لموسى، وبيان المفارقة بينهما بما يزيل عن الرسول كل همومه، ويقطع عليه كل سبيل إلى الأسى والحزن على عنت هؤلاء القوم.

ولهذه الفاء المفاجئة خلابتها حين ترخى العنان للخصم، وتسلم له بمنطقه، لتقوده إلى العجز والاستسلام، فى هذا التحدى الموجه إلى مشركى العرب: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [هود: ١٣] فقد أظهر القرآن للمخاطبين التسليم بدعواهم أنه مفترى، وجاراهم فيها، ثم فاجأهم بما يعجزهم، ويلجئهم إلى نقض مقالتهم، والاعتراف بكذبهم فى دعواهم.. وكأنه يقول: سلمنا لكم ما تقولون من أنه مُفترًى، فإن كان الأمر كما تقولون فما الذى يعجزكم عن أن تفتروا عشر سور من مثل ما افترى، وأنتم فرسان البيان وأرباب الفصاحة؟ فإذا لم تستطيعوا فليس أمامكم إلا الاعتراف بأنه من عند الله. يقول الزمخشرى: (لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاوَدَهُمْ على دعواهم، وأرخى معهم العنان، وقال: هبوا أنى اختلقته من عند نفسى، ولم يوحَ إلىّ، وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضًا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلى، لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام)[١].

ولا يخفى أن بيان الزمخشرى لهذه الفاء يدل على أنها مفصحة عن شرط مقدر، وهو واضح فى عبارة البيضاوى المرجّعة لكلام الزمخشرى: (إن صحّ أنى اختلقته من عند نفسى، فإنكم عرب فصحاء مثلى، تقدرون على فعل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر، لتعلمكم القصص والأشعار، وتعودكم القريض والنظم)[٢].

(١) الكشاف ٢/ ٢٦١ (٢) تفسير البيضاوى ٥/ ٨٠.

الوصل بالفاء والوصل بالاستئناف

تلتبس مواقع الفاء بمواقع الاستئناف البيانى، وتَدِقُّ فروق المعانى بينهما، وخاصة حين تقع الجملة الثانية تعليلاً للجملة الأولى، فتوصل بفاء التعليل تارة، وترتبط بما قبلها ارتباطًا ذاتيّاً بلا عاطف تارة أخرى، وبين الموضعين من الاشتباك والتداخل ما يتطلب الوقوف عنده لبيان فروق النظم، واختلاف الدواعى والأغراض.

• ضبط معاقد الكلام

أوجب البلاغيون فصل الجملة عما قبلها إذا (كان الكلام السابق بفحواه كالمورد للسؤال، فينزل ذلك منزلة الواقع، ويطلب بهذا الثانى وقوعه جوابًا له، فيقطع عن الكلام السابق لذلك)[1] وأطلقوا على ذلك اسم الاستئناف، فدلوا بهذه التسمية على أن ظاهر الجملتين يقتضى الفصل، لاستقلال كل منهما عن الأخرى، (لأن الاستئناف الذى هو الإتيان بكلام مستقل، فى جميع أجزاء تراكيبه عما قبله يستلزم قطعه، أى ترك عطفه عما قبله)[2].

والاستئناف مصطلح سَرَى إلى علم المعانى من أروقة النحاة، ويقصدون به عدم التعلق الإعرابى بين الجملتين، ولا يعنى عدم الارتباط المعنوى، بدليل أنهم قالوا به مع توسط الواو أو الفاء بين الجملتين، وأطلقوا عليهما واو الاستئناف، وفاء الاستئناف، وهما فى الحقيقة عاطفتان، لكنهما لا تعطفان المفردات، وإنما تعطفان جملة الاستئناف على ما قبلها. وهذا ما صرَّح به النحاة أنفسهم. ففى قوله تعالى: ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧١]، قال أبو على الفارسى فى تعليل قراءة ابن عامر: «ويكفّرُ» بالرفع: (أن يستأنف الكلامَ ويقطعَه مما قبله، فلا يجعل

(١) مفتاح العلوم ١٤٢.
(٢) مواهب الفتاح بشروح التلخيص ٣/٥٦.

الحرف العاطف للإشراك، ولكن لعطف جملة على جملة)[1] وقال ابن هشام فى المغنى: (قيل: الفاء تكون للاستئناف، كقوله:

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

أى فهو ينطق، لأنها لو كانت للعطف لجزم ما بعدها، ولو كانت للسببية لنصب. ومثله «فإنما يقول له كن فيكونُ» بالرفع، أى فهو يكونُ حينئذ، وقوله:

الشعر صعب وطويل سُلَّمُه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه

زلّت به إلى الحضيض قدمُه يريد أن يُعْربَه فيعجمُه

أى فهو يعجمهُ. ولا يجوز نصبه بالعطف، لأنه لا يريد أن يعجمه.

والتحقيق أن الفاء فى ذلك كله للعطف، وأن المعتمد بالعطف الجملة، لا الفعل)[2].

فإطلاق البلاغيين اسم الاستئناف على ما هو منزل منزلة الجواب لسؤال اقتضته الأولى، قصد به قطع الجملة المستأنفة عن سابقتها، وعدم عطفها عليها، (لما بينهما من الاتصال والربط الذاتى المنافى للعطف)[3]، لذلك أطلق عليه علماء البلاغة شبه كمال الاتصال، ولم يطلقوا عليه شبه كمال الانقطاع، مع أن الفصل فيما قيس عليه من السؤال والجواب الحقيقيين من كمال الانقطاع، لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء. وقد نبه الزمخشرى إلى التداعى المعنوى بين جملة الاستئناف وما استؤنفت عنه، وإلى أن الابتداء اللفظى لا يمنع من التبعية المعنوية بين الجملتين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ [البقرة: ٢، ٣] فقال: (وقد مرّ لى أن الكلام المبتدأ عقيب «المتقين» سبيله سبيل الاستئناف، وأنه مبنى على تقدير سؤال، فذلك إدراج له فى حكم المتقين، وتابع له فى المعنى، وإن كان مبتدأ فى اللفظ، فهو فى الحقيقة كالجارى عليه)[4] وعلق السيد الشريف على ذلك بقوله: (يعنى أنه

---

(١) الحجة ٢/ ٢٩٩.
(٢) المغنى ١/ ١٦٧.
(٣) مواهب الفتاح- شروح التلخيص ٣/ ٥٣.
(٤) الكشاف ١/ ١٤٩.

وإن كان فى صورة كلام مستقل منقطع عما قبله، حيث جعل مبتدأ لفظًا مخبرًا عنه بأولئك، لكنه مرتبط ارتباطًا معنويّاً صار به من تتمة ما قبله، متصلاً به اتصال التابع بمتبوعه)[1].

وأكثر مواقع الفاء التباسًا بالاستئناف ما كان بينها وبين «إنّ» وبينها وبين استئناف القول فى المحاورات. وكان عبد القاهر قد نبَّه فى حديثه الممتع عن «إن» ومواقعها، إلى صحة وقوع الفاء موقعها فقال: (واعلم أن من شأن «إنّ» إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلاً، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرًا عجبًا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولاً معًا، أفلا ترى أنك لو أسقطت «إنّ» من قوله:

إن ذاك النجاح فى التبكير

لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل حتى تجىء الفاء، فتقول: بكرا صاحبى قبل الهجير، فذاك النجاح فى التبكير، ومثله قول بعض العرب:

فغنها وهى لك الفداء إن غناء الإبل الحداء

فانظر إلى قوله: «إن غناء الإبل الحداء» وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به، وإلى حسن تعطّف الكلام الأول عليه، ثم انظر إذا تركت «إنّ» فقلت: فغنها وهى لك الفداء، غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يُشئم هذا ويُعرق ذاك؟ حتى لا تجد حيلة فى ائتلافهما، حتى تجتلب لهما «الفاء»، فتقول: فغنها وهى لك الفداء، فغناء الإبل «الحداء» ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان؟ وأن قد ذهبت الأنَسَة التى كنت تجد، والحسن الذى كنت ترى)[2].

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/ ١٤٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٧٣.

هذا الكلام الطيب يقفنا على مشارف موازنة بين وصلين: أحدهما ظاهر بحرف موضوع للوصل، هو الفاء، والثانى خفى يتصل فيه الكلام اتصالاً ذاتيّاً، وتتكاثر فيه المعانى تكاثرًا طبيعيّاً لا يحتاج معه إلى واصل صناعى.

وإذا كان عبد القاهر قد اكتفى فى هذه الموازنة بالإلماح إلى تفوق الوصل الخفى، وأن الفاء وإن قامت بدور «إنَّ» فى الربط بين الجمل، فإنها لا تضاهيها فى الحسن، ولا تغنى غناءها فى ذوق أهل البيان، فإنه وضع أيدينا على الفرق بين أن تتناسل المعانى كما تتناسل الأحياء، ويرث الخالف صفات السالف، ويمتّد بنسبه امتدادًا طبيعيّاً، وبين أن تتواصل المعانى تواصُلَ من تجمع بينهما عُرى الصداقة، وتضمهما روابط الألفَة. فكما لا تسأل عن سبب اتصال الابن بأبيه سؤالَك عن الأسباب التى جمعت بين صديقين، فكذلك لا تحتاج جملة الجواب فى ارتباطها بجملة السؤال إلى رباط خارجى، احتياجَ الجملتين اللتين تربط بينهما الفاء. يقول الدكتور محمد أبو موسى: (أن ذكر الفاء نص فى التعليل، وأن الكلام لم يُبن على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة عن الجملة الأولى، وموصولة بها، بهذه الرابطة التى تكلمنا فيها، وإنما هى مرتبطة بها بالفاء التى تعطفها عليها عطف العلة على المعلول، كأن هنا كلامين متميزين، أحدهما علة للآخر قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية، ولهذا صار الفرق بين بناء الأسلوبين فرقًا ظاهرًا، فأحدهما يقوم على الروابط الداخلية الخفية، والآخر على العلاقات اللفظية الظاهرة، ولكل مقامه)[1].

وليست كل مواقع «إنّ» تقوم فيها الفاء مقامها (إنما يكون الذى ذكرنا فى الجملة من حديث اقتضاء الفاء، إذا كان مصدر الكلام يصحح به ما قبله، ويحتج له، ويبين وجه الفائدة فيه. ألا ترى أن الغرض من قوله:

إن ذاك النجاح فى التبكير

جلُّه أن يبين المعنى فى قوله لصاحبيه «بكّرا»، وأن يحتجّ لنفسه فى الأمر بالتبكير، ويبين وجه الفائدة فيه)[2] لكن اللافت للنظر فى حديث عبد القاهر عن

(١) دلالات التراكيب ٣٤.
(٢) دلائل الإعجاز ٣٢٣.

«إنّ» تأكيـده فى كل مرة على أن إسقاطهـا يقطع أواصر الجمل، ويذهب لحُـمة النسب بينها، ولا سبيل إلى وصلها إلا إذا وضعت الفـاء موضعها. يقول: (هل شىء أبين فى الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل، أنك ترى الجـملة إذا هى دخلت ترتبط بما قـبلهـا، وتأتلف مـعه وتتـحـد به، حتى كـأن الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا، وكأن أحدهما قد سبك فى الآخر؟

هذه هى الصورة حتى إذا جئت إلى «إنّ» فأسقطتـها رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول، وتجافى مـعناه عن معناه، ورأيته لا يتصل به، ولا يكون منه بـسبيل حتى تجىء بالفاء)[1].

وهذا غير ما تقرر فى علم المعانى من أن الجملة المستأنفة قد تكون مؤكَّدة بإنَّ، إذا كان المخاطب مترددًا، أو له ظن فى خلاف مـا أخبرتَه، وقد يكون الاستئناف بغيـرها إذا لم يكن ثمة حـاجة إلى التأكـيد، وهذا يعنى أن إسـقاط «إنّ» يذهب بالغرض من التـأكيد، ولكنه لا يذهب بالترابط، فـهو اختلاف دواع ومـقامات، تتفاضل فيها الأساليب بقدر استجابتها لحاجات النفس وأغراضها، وليست مقارنة بين خطأ وصواب، اللهم إلا أن يكون قد أراد شيخ البلاغة بتجافى المعانى وعدم اتصالها ما لا يجىء مـحققًا لمقتضيات الأحـوال ودواعى السياق، وإلا فإن الربط بالاستـئناف قائم بغيـر «إنَّ» والفاء. يقول السّـعد: (فإن قلت: اعـبد ربك، إن العبادة حق له، فهو جواب للسـؤال عن السبب الخاص، أى: هل العبادة حق له وإذا قلت: فالعبادة حق له، فهـو بيان ظاهر لمطلق السبب، ووصل ظاهر بحرف مـوضـوع للوصل. وإذا قلت: العـبادة حـق له، فهـو وصل خـفى تقـديرى، والاستـئناف جواب للسؤال عن مطلق الـسبب، أى لم تأمرنا بالعـبادة له؟ وهذا أبلغ الوصلين وأقواهما، فتَفاوت هذه الثلاثة بحسب تفاوت المقامات)[2].

وعليه فإنك لو قلت فـى البيت الذى ذكره عبد القـاهر: «غناء الإبل الحداء» كان وصلاً خفيّاً بالاستئناف كذلك، لكن يكون سؤالاً عن مطلق السبب، وهو ما يجافى

(١) دلائل الإعجاز ٣١٦.
(٢) المطول ٢٥٩.

حال المخاطب، الذى انشرح صدره للغناء، بعد أن عرف أن غناءه للإبل سبب افتدائها له، فلا يتصور منه أن يسأل: لم تأمرنى بالغناء، وإنما يسأل عن هذا الغناء أهو الحداء أم شىء آخر؟ فكان سؤال المتردد المحوج إلى تأكيد ما تصوره من أنواع الغناء. وهو ما لا يصلح بإسقاط «إن» سواء عوض عنها الفاء أم وصل بغيرها.

ويكاد أهل البيان يجمعون على أن الوصل الخفى أبلغ من الوصل الظاهر بالفاء، وذلك لما فيه من الالتفات إلى المخاطب، وإثارته وإيقاظ فكره، واستبطان مشاعره وما يدور بخلده، ونقله من مجرد سامع يتلقى الأخبار ويتابعها، إلى محاور صامت، يؤثّر فى الأحداث بحركته الذهنية، ويرسل إشارات عقلية، يلتقطها المتكلم، ويجيبه عليها، دون أن يتدخل المخاطب بكلام مقروء أو مسموع فى الحوار، فهو محاور بغير كلام، ومؤثر بغير ضجيج، إنه تراسل الحواس بين المبدع والمتلقى، تفردت به لغتنا فى نظمها العجيب.

لكن هذه الأبلغية فى الموازنة بين الفاء والاستئناف موازنةٌ نظرية بحتة، لا تعنى أن الاستئناف حيث وقع كان أبلغ، وإنما يحكم ذلك دواعى الأحوال ومقامات الخطاب، فقد يكون الوصل بالفاء أبلغ فى مقام، والوصل الخفى بالاستئناف مجردًا من حرف التوكيد أبلغ فى مقام ثان، وقد تتعين «إن» فى مقام ثالث، ويجمع بينها وبين الفاء فى مقام رابع.

وللقرآن فى اختيارات هذه الطرق واستخدامها فى الموضع الذى لا يصلح فيه سواها المثل الأعلى. ولصاحب الفرائد فى ذلك كلام لو لم يكن له فى كتابه غيره، لكان جديرًا أن يوصف بالفرائد، فما بالك بمثله وهو كثير؟! يقول: (مما مهدنا لك من كيفية إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وخلافه، ولا سيما تنزيل غير السائل منزلة السائل، مع ما سيأتيك فى الفن الرابع فى بحث الفصل والوصل من مواقع الاستئناف، وفى بحث الإيجاز والإطناب من التنبيه على تفاوت المقامات فى اقتضاء الدلالة على المعنى بصريح اللفظ، وبالقرائن يعرف تفاوت: اعبد ربك، إن العبادة حق له؟ أو العبادة، أو فالعبادة حق له، بحسب المقام، فإنك إذا قلت: اعبد ربك، فإن كان المخاطب منكرًا لاستحقاقه العبادة

أو مترددًا فيه، أو خالى الذهن، لكن مع أمـارة إنكار أو اعتبار تردد، كان قوله: «إن العبادة حق له» جيـدًا فى الغاية، لمصادفته مقتـضى المقام، و«العبادة حق له» رديًّا، لخلوه عن ذلك، و«فالعبادة» متوسطًا، لاشتـماله على شائبة تأكيد وإشعار بالسـببيـة، وإن كان خـالى الذهن من غـير أمارة الإنكـار والتردد، كان قـولك «العبـادة حق له» جيـدًا، و«إن العبادة» رديًّا، و«فـالعبـادة» متوسطًـا، لقربه من الابتدائى، وإن كان مما لا يناسبـه إلا وصل الكلام بما قبله بحرف ظاهر دال على السببيـة، كان «فـالعبـادة حق له» جيـدًا قطعًا «والعـبادة» رديًّا، و«إن العـبادة» متـوسطًا، لأن «إن» يغنى غناء الفاء العـاطفة فى الجـملة الخبـرية، وإن كان ممن يناسبه الوصل الخفى المعنوى، كان الأجود «العبادة»)[1].

لقد حـرصت على نقل هذا النص بطوله، لأنه يوازن بين الأسـاليب بخواصـها مرتبطة بمقاماتها، فكان أكثر تجاوبًا مع واقع النصوص فى اللسان العربى، وفى قمتها النص المعجز، الذى وقـعت فيه هذه الأنماط من الأساليب مـحكمة غاية الإحكام، آخذة بحُجَز سياقها، أو آخذا سياقها بحجزها، على خير ما تحب وترضى.

ونبدأ بأساليب الحـوار التى يحكيها القرآن على ألسنة المتحـاورين، فيأتى لفظ القول موصولاً بـالفاء حينًا، ومقطوعًا فى أغلب الأحيـان. وقد ذهب أهل اللغة إلى أن الأصل فى المقـاولات وصلها بالفـاء، وما جـاء بغيرهـا فهو مـبنى على إضمارها. قال الطبـرى فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ [البقرة: ٦٧] (وحذفت الفاء من قوله: «أتتخذنا هزوًا» وهو جـواب، لاستـغناء ما قـبله من الكلام عنه، وحـسن السكوت على قوله: «إن الله يـأمركم أن تذبحـوا بقرة» فـجاز لذلك إسـقاط الفاء مـن قوله: «أتتخذنا هزوًا» كما جاز وحسن إسقاطها من قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا**﴾ [الحجر: ٥٧، ٥٨] ولم يقل: فقالوا إنا أرسلنا، ولو قيل: فقالوا كان حسنًا أيضًا جائزًا)[2].

(١) الفرائد فى شرح الفرائد ٢٢.
(٢) تفسير الطبرى ٢/ ١٨٣.

فالفاء فـى نظر أهل اللغة مرادة فى مثل هذه المواضع، وهو مـا صرح به ابن الشجرى حين قال: (ومما استمر فيـه حذف الفاء من أوائل آيات متواليات، قوله تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.... قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٣- ٣١] جميع هذه الآى الفـاء مرادة فيها»[١] لكن أهل البيان يرون أن أقوال المتـحاورين موصولة اتصـالاً ذاتيّاً يتولد من كل قول سـؤال يقع الآخر جـوابًا له. يقول عـبد القـاهر: (واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ «قـال» مفصولاً غـير معطوف، هذا هو التقدير فيه والله أعلم، أعـنى مثل قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ**﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٨] جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال. فلما كان فى العـرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: «دخل قوم على فلان فقالوا «كـذا» أن يقولوا: فما قال هو؟ ويقول المجـيب: «قـال كـذا» أخـرج الكلام ذلـك المخُـرج، لأن الناس خـوطبـوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه)[٢].

هذا الفصل روعى فيه حركة ذهن السامع فـى تنقله بين المتحاورين، ومواكبته فى وثباته وتطلعاته، وفـيه تقدير لوعيه وحـسن تنصّته، فيسـاق له كلام المحاور الآخر مساق الجواب لما همست به نفسه، وجال بخاطره، فهو كلام يتكاثر داخل نفس المخاطب ويترتب فى ذهنه، ويمتد بامتداد أفقه المتوثب إلى المعرفة، للإجابة عما يجول بخاطره.

فالمخـاطب هنا سـريع الحركـة، كامل اليـقظة، يمسك بمفاتيح الحـوار، ويمطّه بالقدر الذى يشبع نهمه.

فإذا ما دخلت الفاء كان للحوار مذاق آخر، تتدفّق فيه الكلمات والجمل تدفُّقًا لا يترك للمخاطب مـهلة يلتقط فيها أنفاسه، ويسـتجمع فيها قواه، فـهو مأخوذ

(١) أمالى ابن الشجرى ٢/ ١٤٥.
(٢) دلائل الإعجاز.

بجلال الحدث، يرصده ويلاحقه، لكنه لا يسبقه، وتترتب فيه الأحداث طبقًا لما يريد المتكلم أن يخبر به، لا كيفما أراد المخاطب أن يَعْرِف.

لذلك كان الاستئناف وطرح الفاء أبلغ، لما فيه من الرسائل المتبادلة بين المخاطب والمتكلم، والتى يطوى فيها حديث النفس ويبقى أثره دالاً عليه فى الفصل بين أقوال المتحاورين، وهو ضرب من الإيجاز، تقل فيه الألفاظ وتتكاثر المعانى وتتوثق فيه الصلة بين المبدع والمتلقى.

● **فصل أقوال المتحاورين ووصلها**

أما عن اختلاف المقامات فى فصل المقاولات ووصلها، فمتى كان المقام مقام تسجيل واستنكار وتوبيخ، وكان الغرض إشهاد المخاطب على أصحاب هذه الأقوال وإدانتهم، أو كان الحوار يمثل أحداثًا غريبة يثب فيها خيال المخاطب لاستشراف ما لم يقص عليه منها، كان الفصل هو الأليق، لأنه حينئذ يراد له أن يشارك بشهادته، فتترك له الفرصة، لأن يسأل ويجاب كما هو الشأن فى قصة البقرة، التى أمر الله تعالى بنى إسرائيل بذبحها، فكانت أقوالهم جدلاً ومماطلة تدهش المخاطب، وتدفعه إلى التطلع لمعرفة ما وصل إليه القوم فى تعنتهم ومماطلتهم. ومثل ذلك الحوار الذى دار بين رسل الله، وبين إبراهيم عليه السلام، وبينهم وبين زوجته: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

فقد تضمن من الأحداث الغريبة ما تثب معه النفس والعقل، تشوُّفًا إلى معرفة ماذا سيحدث بعد كل قول، واندفاعًا مما حُكى للوصول إلى ما لم يُحْك.

ويجب هنا أن نفرق بين قول ينبنى على قول، ويراعى فيه تطلع المخاطب إلى معرفة قول الآخر، وبين قول يرتبط بقول، ويتسبب عنه حتى يصبح جزء كلام، وينتظم مع الأول انتظام الجملة الواحدة. ففى الأول من الاستقلال ما يقتضى الفصل، وفى الثانى من الاشتباك والتداخل ما يستدعى حرف الوصل.

وكأنى بالفصل وحاجته إلى الوقوف عند انتهاء القول السابق، أشبه بلحظة انتظار من المتكلم يسمع فيها ما تهمس به نفس المخاطب بالسؤال، قبل أن يستأنف الجواب عنه بحكاية ما قاله الآخر، بخلاف الفاء التى توالى بين الأحداث على وجه يخدم سرعة القصّ، ويربط بين الأسباب ومسبباتها.

والمثل على ذلك ما حكاه الله تعالى عند إرسال النبيين الكريمين: نوح وهود عليهما السلام. قال فى قصة نوح: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [الأعراف: ٥٩] فعطف القول على الإرسال بالفاء.

وفى قصة عاد التى عطفت على قصة نوح قال: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ٦٥]. ففصل القول عن الإرسال مع تشابه النظم فى القصتين.

وقد توقف الزمخشرى أمام الموضعين، وتساءل عن سر حذف العاطف فى الآية الثانية: (فإن قلت: لم حذَف العاطف من قوله «قال يا قوم» ولم يقل: فقال، كما فى قصة نوح؟ قلت هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾[1]. غير أن جوابه اقتصر على تعليل الفصل دون أن يبين سر إيثار الفصل والوصل فى موقعيهما، مما جعل السعد يستدرك عليه بقوله: (تمام الجواب أن يبين وجه اختصاص قول نوح بالعطف والربط اللفظى، وقول هود بالاستئناف والربط المعنوى. فقيل: قصة نوح ابتداء

(١) الكشاف ٢/ ٨٦.

كلام، فليست مظنة سؤال بخلاف قصة هود، فإنها معطوفة على قصة نوح، فكانت مظنة أن يقال: أقال هود مثل ما قال نوح أم لا؟ وقيل: لأن نوحًا كان مواظبًا على دعواهم، مواصلاً للجواب عن شبهتهم؟ فكان كلامه شديد الملاءمة لحرف التعقيب، ولا كذلك حال هود)[1].

هذا كلام دقيق فى الربط بين اختلافات النظم ودواعيها، وبسْطُ ذلك أن إخبار الله تعالى بإرسال نوح ابتداء لا يثير سؤالاً مؤداه، ماذا قال لقومه، حتى يقع القول مفصولاً على طريق الاستئناف، إذ قد يعقب الإخبار بالإرسال خبرٌ آخر ليس فيه مثل هذا القول، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ [العنكبوت: ١٤]. فلو كان الإخبار بإرساله إلى قومه يستدعى هذا السؤال، لكان ذلك الشأن حيث ورد مثل هذا الخبر. أما الذى استدعى هذا السؤال وورود القول مفصولاً فى قصة هود، فهو عطفها على قصة نوح، وبناؤها على مثل ما بُنيت عليه الأولى. فلما أعقب الإخبار بإرسال نوح الإخبار بما قال لقومه، توقع المخاطب عند سماع الخبر بإرسال هود أن يتبعه الإخبار بما قاله لقومه، لتشابه بناء القصتين، فراعى النظم تشوُّفه إلى معرفة هذا الخبر ففصله. أما دعوى أن نوحًا كان مواظبًا على دعواهم، مواصلاً للجواب عن شبهتهم، فليس ذلك -فيما أرى- سر الوصل بالفاء لأن ذلك شأن المرسلين جميعًا، والدليل على ذلك أن القول جاء معطوفًا على الإرسال بالفاء فيما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السلام، حين كانت قصته بداية القصص فى سورة الزخرف، كما كانت قصة نوح ابتداء القصص فى سورة الأعراف والمؤمنون. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الزخرف: ٤٦].

ليس أمامنا إلا القول بأن عطف قصة هود وصالح وشعيب على قصة نوح، وبناءَها على مثل ما بنيت عليه من النظم فى سورة الأعراف، هو الذى أثار

(١) حاشية السعد ٢/ ٥٩٨.

فيها السؤال. وتقدير السعد لهذا السؤال أدقّ من تقدير الزمخشرى: «ما قال هود لقومه؟» وكأن الإخبار بالإرسال هو الذى استدعى هذا السؤال، وليس ذلك صحيحًا، وإنما الصحيح ما قدره السعد «أقال هود مثل ما قال نوح أم لا». لأن تقدم قصة نوح هو الذى أثار السؤال لا تقدم فعل الإرسال.

أما وصله فى قصة نوح بالفاء، ففيه إشارة إلى الارتباط الظاهر بين الإرسال والغرض منه، وهو دعوة القوم إلى الله. فأدَّت الفاء درها فى الإشارة إلى المبادرة بتبليغ ما أرسل به، وأخرجتهما مُخْرج الجملة الواحدة، التى أخبر بجزئها الأول عن الإرسال، وبجزئها الثانى عن أداء الرسالة. وقد أشار ابن المنير إلى الفرق بين وجود العاطف وتركه فى الموضعين بقوله: (اعلم أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيّرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل احدة منها فى معناها)[1].

هذه المبادرة فى طبيعة الفاء، وما تدل عليه من الإسراع بالرد، يقصد إليها القرآن حين يريد إبراز الانفعال بمضمون القول السابق، وسرعة الاستجابة دونما تلعثم أو تردد، كما نجده فى قوله تعالى: ﴿**فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [يونس: ٨٣ - ٨٤].

جاء قوله «فقالوا على الله توكلنا» معطوفًا بالفاء، ليعكس صدق الإيمان لدى هذه القلة، التى استثناها الله تعالى ممن أرسل إليهم موسى، وليبرز أن علوّ فرعون وطغيانه لم يدفعاهم إلى التردد لحظة فى الاستجابة لأمر موسى، وهو ما يعضّده قَصْرهُم التوكل على الله وحده. فكأن القرآن يقول: إنهم حين دعاهم موسى إلى التوكل على الله أسرعوا إلى تلبيته، ولم يترددوا فى الانحياز إليه. يقول صاحب التحرير والتنوير: (وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوى

(١) الإنصاف ٢/ ٨٦.

الذى واجههم به نبيهم مسرعًا بهم إلى التجرد من الخوف والمصانعة، وإلى عقد العزم على التوكل على الله، وكذلك بادروا بكلمة «على الله توكلنا» مشتملة على خصوصية القصر، المقتضى تجردهم عن التوكل على غير الله تعالى، وأشير إلى مبادرتهم بأن عطفت جملة قولهم ذلك على مقالة موسى بفاء التعقيب، خلافًا للأسلوب الغالب فى حكاية جمل الأقوال الجارية فى المحاورات، التى تكون غير معطوفة، فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة)[1].

فالفصل وبناء الجملة المستأنفة على السؤال يذهب بالغرض من الدلالة على سرعة الاستجابة، وعدم التردد فى إجابته إلى ما دعاهم إليه، لأن الغاية من السؤال هى معرفة رده عليهم، لا معرفة ما إذا كانوا قد بادروا إلى الجواب أو تأخروا فيه.

نعم. الغالب فى حكاية المحاورات فصل الأقوال، رعاية لاستقلال كل قول عن الآخر، والتفاتًا إلى كونها أجوبة عن أسئلة تتولد عن الأقوال السابقة، وهو الغالب كذلك فى محاورات القرآن الكريم، وما جاء معطوفًا بالفاء -وهو قليل- روعى فيه خصوصية فى القول، توجب ارتباطه بالأول ارتباط التابع بمتبوعه، فتدخل الفاء للدلالة على أن المعطوف مسبب عما قبله، وليس مستقلاً عنه.

وهذا هو سر المجىء بالفاء فى ردّ قوم نوح من سورتى هود والمؤمنون، وحذفها فى ردهم من سورة الأعراف، مع أنهم فى المواضع الثلاثة يجيبونه على دعوتهم إلى الله تعالى وتخويفهم من عذاب الله، ولكن لما اختلفت إجاباتهم فصل منها ما كان إجابة مستقلة، كأنهم ابتدءوه بها، ووصل بالفاء ما كان من أقوالهم مرتبطًا بقول نوح ارتباطًا لا يصح معه الاستقلال.

فقد جاء مفصولاً على سبيل الاستئناف قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٠].

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٢٦٣.

سقطت الفاء من قول الملأ، لأنه وإن كان رداً على دعوة نوح لهم، فإنه أخرج مُخرج الكلام المستقل، لإبراز عنادهم وإصرارهم على كفرهم، وكأنهم بادءوه بقولهم هذا، ولم يكن منهم ردَّ فعل على دعوته. بخلاف الموضعين اللذين دخلت فيهما الفاء، فإن جوابهم فيهما ليسَ له صفة الاستقلال، ولا تصح المبادأة به، فأخرجته الفاء مخرج التابع المتسبب عن دعوة نوح. هما قوله تعالى فى سورة هود ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

وقوله فى سورة المؤمنون: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ**﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٤]. فقول الملأ فى هذين الموضعين لا يصح المبادأة به، وليس هو مما يستقل به الكلام، لأنه كالدليل على كفرهم، فهو مرتبط بقول نوح ارتباط كلام مسبب عن كلام، ومترتب عليه. فكأنهم قالوا: لا نقبل دعوتك، لأنك بشر مثلنا، فكما أن قولك: لأنك بشر مثلنا لا يصح استقلاله عن قولهم: لا نقبل دعوتك، كذلك لا يستقل قولهم هذا عن قول نوح عليه السلام، وذلك هو السر فى وصف الملأ فى الموضعين بالكفر، وتركه فى الموضع الأول، لأنه إعلان لكفرهم وإصرارهم عليه، وفى الموضعين الأخيرين تدليل على كفرهم. وهذا واضح فيما قاله الغرناطى: (إن الواقع فى سورة هود من قوله تعالى مخبراً عن جواب قوم نوح: «ما نراك إلا بشراً مثلنا» إلى آخر كلامهم لا يستقل مبتدأ به، بل يستدعى ما يبنى عليه، إذ لا يفتتح أحد أحداً بمثل هذا مُبْتَدأ، وإنما يتكلم بهذا جواباً. ولما قال لهم نوح عليه السلام: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» إلى ما عرّفهم به مما حصل به الإعلام بمقامه النبوى، وجاوبوه بُعداً عن

تعرّف صدقه، ومعرفة حقه بقولهم: «ما نراك إلا بشراً مثلنا» أى لو كنت كما تزعم لكنت من جنس الملائكة، ولم تكن من جنس البشر، وقد أفصحوا بهذا فى سورة المؤمنين. . . . . .

أما قوله فى سورة الأعراف: «قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين» فإن هذا وإن تضمن الجوابية، فإنه بغير الفاء، وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعى ما يناسب النظم. .

فتأمل جوابهم هنا لما كان الوارد فى قصة نوح عليه السلام فى أنه يبتدأ بمثله، ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه كيف ورد بغير الفاء)[1].

ومن روائع الوصل بالفاء خلافًا لمقتضى الظاهر من فصل المقاولات، قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٣١].

فلما كان المسئول عنه وهو الرازق المالك للسمع والأبصار، المخرج الحى من الميت والمخرج الميت من الحى، مما لا نزاع فى اختصاصه بما وصف به، ولا يدّعى المخاطبون فيه لغيره شريكًا، جاء الجواب مقترنًا بالفاء، للدلالة على أنهم لا يترددون فى التسليم به لله تعالى، ولا يماطلون فى الإقرار به، وللفاء فى الدلالة على المبادرة بالجواب فى هذا الموقع ما ليس للقطع والاستئناف، المنبئ عن إجالة النظر والتريُّث قبل الجواب.

ألا ترى كيف وقع الجواب مفصولاً حين تعلق الأمر بالربوبية والملكية الخالصة لما خلق، لما فيه من إلزام بنفى الشريك، فلم يبادر المخاطبون بالجواب، كما بادروا به فى الآية السابقة وإن لم يستطيعوا الإنكار. إلا أن الفصل أشعر بريْثهم فى الإجابة، وتدبّر عواقبها قبل إلجائهم إلى النطق بما لا مناص من الإقرار به.

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٩٤ - ٣٩٥ بتصرف.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥ - ٨٩].

فحين كان أمر رزقهم وما تبعه من ملكية أسماعهم وأبصارهم فى ظهور إسناده لله تعالى مما تهتف به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم، دخلت الفاء دالة على مبادرتهم بالإجابة، وحين قُرّروا بالربوبية وما يتبعها من إخلاص ملكيته تعالى لأرضه وسمائه - وفى الإقرار تضمين نفى الشريك تثاقلت ألسنتهم وتباطأوا فى الجواب، وأشعر الفصل بأنهم اعترفوا اعتراف المغلوب على أمره، المجبر على الإقرار بما لا يستطيع إنكاره، وذلك ما لا يناسب حرف التعقيب.

وهذا هو سر اقتران إجابة الرسول على سؤال المشركين بالفاء فيما أمر أن يجيبهم به من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وهو الموضع الوحيد من بين سبعة عشر موضعًا، صُدّر فيها خمسة عشر موضعًا بصيغة «يسألونك» وموضعان بصيغة «يستفتونك»، وفيها جميعًا أجابهم الله تعالى على لسان رسوله، مصدرًا الإجابة بلفظ «قل» مفصولاً، عدا هذا الموضع الذى اقترن بالفاء، فكان ذلك إشعارًا بأن الإجابة على سؤالهم هذا كانت مما أوحى الله تعالى به إلى نبيه قبل أن يسألوه، فبادرهم بالجواب عقب سؤالهم دون ريْث، بخلاف المواضع الأخرى، التى كان عليه السلام ينتظر الوحى ليجيبهم على ما سألوه. كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. قال الزركشى: (قالوا وجميع ما فى القرآن من السؤال لم يقع عنه الجواب بالفاء إلا قوله تعالى: «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا»

«الآية» لأن الأجوبة فى الجميع كانت بعد السؤال، وفى طه كانت قبل السؤال)[1].

وللرازى رأى طريف فى اختصاص آية طه بالفاء، وإن كان لا يخرج عما أثبتناه من معنى المبادرة والإسراع بالجواب. يقول الرازى: (إنما قال: «فقل» مع فاء التعقيب، لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر، فلا جرم أمره بالجواب مقرونًا بفاء التعقيب، لأن تأخير البيان فى مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز. أما المسائل الفروعية فجائزة، لذلك ذكر هناك «قل» من غير حرف التعقيب)[2].

وانظر كيف وقعت الفاء فى أمر الله لرسوله بالجواب على ما اقترحه أهل مكة من الإتيان بآية كآيات موسى وعيسى، مستخفّين بما أنزل الله تعالى عليه من الآيات، وأعظمها القرآن الذى كان إعجازه لهم أعظم الأدلة على نبوّته عليه السلام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**﴾ [يونس: ٢٠]. فلما كان قولهم هذا عنادًا واستكبارًا، واستهانة بما أنزل الله على رسوله من الآيات وقعت الفاء فى قوله تعالى: «فقل» لمبادرتهم بالجواب المتضمن تهديدهم بعقاب الله تعالى، إيماء إلى أن ما طلبوه لا يستحق الوقوف عنده، والاعتداد به، فقابل استهانتهم فيما سألوا، باستهانة أشد فيما أجاب، ودل بالإسراع فى جوابهم على التمكن والتثبت والثقة فى أن الله تعالى منجز ما توعّدهم به. فهو ليس فى حاجة إلى التريث والانتظار فى الرد عليهم.

● **الربط بالفاء والربط بـ«إنَّ»:**

مواطن الالتباس بين التعليل بالفاء، والاستئناف بحرف التوكيد، هى مواضع الاحتجاج لما قبلهما، والاستدلال على صحته. وإيثار أحدهما على الآخر تحكمه دواعى الأحوال واختلاف المقامات، فحين يكون الموقف موقف تردد أو إنكار، فإن

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/ ١١٦

(٢) تفسير الفخر الرازى ٢٢/ ٧٧

الاستئناف بحرف التوكيد هو الأنسب لإزالة هذا التردد، وإقناع المنكر، ولذلك ألفَت «إنَّ» مواطن السؤال عن السبب الخاص، لما يصاحبها من التردد والإنكار، كما أنها تكثر عقب الأوامر والنواهى التى يحتاج تنفيذها إلى كُلفة ومشقة، فكان ما فيها من مصارعة النفس ومغالبة الهوى، والتثاقل فى أدائها بحاجة إلى ما فى حرف التوكيد من الإلهاب والتهييج، مثلما تجده فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج: ١] وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢]. وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢]. ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦ - ٣٧]. ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾ [مريم: ٤٤].

أما التعليل بالفاء فإنه يخرج السبب مخرج الأمر الذى لا ينكره المخاطب، ولا يتردد فيه حقيقة أو تنزيلاً، ويكون فى مقام التوبيخ والتهديد أشد لذعا، وأكثر إيجاعًا، كما فى قوله تعالى: ﴿**أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١٣]. وفيه ينعى الله تعالى على المؤمنين تثاقلهم عن مقاتلة عدوّ نقض عهده معهم، وحاول إخراج الرسول، وبدأهم بالقتال، وكل هذه جرائم، واعتداءات من شأنها أن تستثير نخوتهم، وتدفعهم إلى المسارعة بمنازلته، وقد ازدادت نبرة التوبيخ والاستهجان لموقفهم بهذا الاستفهام «أتخشونهم»؟ بما تضمنّه من تقريرهم بهذه الخشية، وتوبيخهم عليها، ثم جاء التعليل بالفاء «فالله أحق أن تخشوه» مناديًا على غفلتهم عن حقيقةٍ ما كان يجب أن تغيب عن بال المؤمن،

وهى أن الله أحق بالخشية. وإذا كان المؤمنون فى حقيقتهم لا ينكرون أو يترددون فى استيجاب الله خشيتهم، فإن الفاء تظهر التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، فهم على حين يسلمون بأن الله هو الأحق بأن يخشوه، يفعلون نقيضه حين يخشون سواه، وفى ذلك من النكير عليهم ما ليس ينهض به حرف التوكيد الموحى بالتردد فى استحقاق الله هذه الخشية، وهو ما لا يلائم حال المخاطبين، وقد جاء قوله تعالى: «إن كنتم مؤمنين» تجسيداً للتناقض بين الأقوال والأفعال، فليس الإيمان دعوى، وإنما هو عقيدة تدفع إلى الحركة، ويقين يشكل الفكر والسلوك معًا.

وقد عدل النظم الكريم عن الواو إلى الفاء، فلم يقل: أتخشونهم والله أحق أن تخشوه. وهو موقع الواو كما جاء فى خطاب الله لرسوله عليه السلام يعاتبه على ما جرى بينه وبين زيد بن حارثة: ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فلما كان الرسول مستحضراً لهذه الحقيقة، غير خافية عليه جاءت الواو على معنى: أنك تخشى الناس حال علمك بوجوب اختصاص الله بها. وعدل عنها إلى الفاء فى توبيخ المتثاقلين عن القتال، إشعاراً بأن المؤمنين فى خشيتهم لعدوهم كانوا جاهلين بها، غافلين عنها، وهذا الفرق الدقيق، بين الواو والفاء أوضحه الزمخشرى في قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام فى خطابه لرُسُل ملكة سبأ: ﴿**قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم**﴾ [النمل: ٣٦]. قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدنى بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبى عالمًا بزيادتى عليه فى الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدنى بالمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأنى أقول له: أنكر عليك ما فعلت، فإنى غنى عنه، وعليه ورد قوله تعالى: ﴿**فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ**﴾[1].

(١) الكشاف ٣/ ١٤٨.

فتصوير المؤمنين بصورة من خفى عليهم أن الله هو أحق بالخشية أليق بمقام التوبيخ، وهو سر التعليل بالفاء، دون الاستئناف بإن المشعرة بأن هناك شائبة إنكار عند المخاطبين.

وتأمل هذه الفاء وشدة لذعها فى قوله تعالى تأنيبًا لمن لم يحقنوا بالشهادة دماء من نطق بها، حُبّاً فى الغنيمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾ [النساء: ٩٤].

فقد نزلت هذه الآية حين قَتَل أسامةُ بن زيد مرداس بن نهيك الضميرى، واستاق غنمه فى إحدى السرايا التى بعثه الرسول عليها، بعد أن أعلن مرداس إسلامه، مما أغضب الرسول ﷺ[1].

فكان للتعليل بالفاء فى قوله: «فعند الله مغانم كثيرة» طعم أشد مرارة فى مقام التأنيب، حيث أبرزت المخاطبين وقد أعماهم حب الدنيا وأعراضها عن رؤية ما ادخرهُ الله لهم من النعيم المقيم، وأنستهم رغبتهم فى الغنيمة العاجلة، ما وعدهم الله تعالى به من المغانم الكثيرة الآجلة. فلو قيل إن عند الله مغانم كثيرة، لما كان لها من الوقع ما للفاء بما أشاعته من تجهيل وغفلة. فمعها يظهر الله تعالى لهم ما جهلوا أو تجاهلوا، لعمرك إنه لذم ما بعده ذم أن يجهل المجاهدون فى سبيل الله حقيقة ما أعدّ لهم من الجزاء، وهو الذى من أجله خرجوا. وليس ذلك موضع حرف التوكيد.

وإذا كان عبد القاهر قد صرح بأن الفاء حين توضع موضع «إن» فى مثل قول بشار:

بكرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

تؤدى دورها فى الوصل، ولكنها لا تعيد إلى الجملتين ما كان بينهما من الألفة، فإننا بمثل ذلك نقول فى «إنَّ» حين توضع موضع الفاء، فإنها وإن كانت

(١) انظر أسباب النزول للواحدى ١٢٩.

تغنى غناءها فى الربط بين الجملتين، لكنك لا تجد لها من الحسن والأنسة ما للفاء في مثل قـوله تعالى: ﴿**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد: ٤٠ -٤٢].

فقد أدخلت الفـاء الأنس على رسول الله ﷺ، حين أسرعت إلى إبطال مكر الماكرين، وأعقبت محاولات الكافرين السـابقة فى الكيد لأنبيائهم، بحصر المكر المؤثر فى مكر الله. وعدم الاعـتداد بكل مكر سواه، على مـا يدل عليه أسلوب القصر بالتقديم، فى قوله «**فلله المكر جميعًا**». وهذه الفاء وحدها هى التى ألقت فى روع الرسول ﷺ ألا يـأبه بمكرهم فيمـا أفصـحت عنه من معلَّل مـحذوف، على ما صرح به الجمل فى حاشيته حين قال: (**فلله المكر جميعًا**) تعليل لمحذوف تقديره: فلا عبرة بمكرهم، ولا تأثير له، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله (**فلله المكر جميعًا**)[1].

وما للفاء مـن خصوصية الإلماح إلى مـعان مطوية يجعلها أثيـرة فى مثل هذا الموضع. بحيث لو وضَعْتَ «إنّ» موضعـها فقلت: وقد مكر الذين من قبلهم إن لله المكر جميعًـا، لبدت «إنَّ» غريبة نابية، وذهب ما بين الجـملتين من الانسجام والائتلاف، وضاع مـا أومأت إليه الفاء من معلَّل مـحذوف. ذلك أن الشأن فى حرف التوكيد أن يقع فى جواب سؤال مقدر، تنبئ عنه الجملة المعلَّلة، فإذا كانت هذه الجملة محذوفـة، فإن استشعار السؤال ضـرب من التنجيم، لا يقع مثله فى كلام فـصيح، ولو ذكـر هذا المعلل لضاع الـغرض من الحذف والمبـادرة إلى هذا القصـر الذى أراح نفس الرسـول عليه السـلام، وربط على قلوب المؤمنين. إنه موضع الفاء، تتَفرّد به فيما تفصح عنه من حذوف، سواء كان المحذوف سببًا كما ذكرناه فى مبحث طى الأحداث، أم كان المحذوف مسببًا كما فى هذه الآية.

(١) الفتوحات الإلهية ٢/ ٥١٢.

● **الفاء والاستئناف بغير إنَّ:**

درج علمـاء البيـان على القول بأن الوصـل بالاستـئناف أبلغ أبدًا من الوصل بالفاء، لما فيـه من تقليل اللفظ وتكثير المعنى بتقدير السـؤال، وما يتبع ذلك من أغراض ذكـروها فى باب الفصل والوصل[1]. وقد صرح الزمـخشرى بذلك فى مجال الموازنة بين الوصلين فى مشتـبه النظم، وذلك حين قارن بين الوصل بالفاء فى قولـه تعالى من سـورة الأنعام: ﴿**قُلْ يَا قَـوْمِ اعْـمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـامِلٌ فَسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَـاقِبَـةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ومثله قولـه فى سورة الزمر: ﴿**قُلْ يَا قَـوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ [الزمر ٣٩ - ٤٠]، وبيـن الوصل بالاسـتئناف فيمـا أشبهـهما من قـوله تعالى على لسان شـعيب: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَـوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾ [هود: ٩٢ - ٩٣].

قال الزمـخشرى: (فـإن قلت: أى فرق بين إدخـال الفاء ونزعهـا فى «سوف تعلمـون»؟ قلت: إدخال الفـاء وصل ظاهر بحـرف موضـوع للوصل، ونزعهـا وصل خفى تقـديرى بالاستئناف، الذى هو جـواب لسؤال مقدر، كـأنهم قالوا: فمـاذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعـملت أنت؟ فقال: سـوف تعلمون، فوصل تارة بالفـاء، وتارة بالاستئناف، للتفنن فى البـلاغة، كما هو عـادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهمـا الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه)[2].

وبالرغم من ضعف القول باختلاف أساليب الوصل للتفنن فى البلاغة، لما فيه من إغفال الدواعى والأغراض التى تستتبـعها فروق فى النظم، فإن من جاء بعده

(١) يراجع مواهب الفتاح وعروس الأفراح، وحاشية الدسوقى، من شروح التلخيص ٣/ ٥٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٩.

من المفسرين ورجالات البيان لم يخالفوه فى القول بأبلغية الاستئناف، وحاولوا الكشف عن سر تفوقه على الوصل بالفاء، فقال الرازى بعد أن علل حذف الفاء بتقدير السؤال: (فظهر أن حذف الفاء ههنا أكمل فى باب الفظاعة والتهويل)[1] وفى تعليقه على عبارة البيضاوى: «فهو أبلغ فى التهويل» قال الشهاب الخفاجى: (وكونه أبلغ فى التهويل، للإشعار بأنه مما يسأل عنه، ويعتنى به)[2]. ويضيف الألوسى: (والسؤال المقدر يدل على ما دلت عليه الفاء، مع ما فى ذلك من تكثير المعنى وتقليل اللفظ)[3].

لكنهم على اتفاقهم مع الزمخشرى فى كون الوصل بالاستئناف أبلغ، فهم لم يقتنعوا بأن الاختلاف راجع إلى الافتنان فى الأساليب، وحاول بعضهم البحث عن سر المخالفة فى الوصل بالفاء فى موضع، وبالاستئناف فى موضع آخر، فقال الشهاب: (وأما اختيار إحدى الطريقين ثمة، والأخرى هنا، وإن كان مثله لا يسأل عنه، لأنه دورى، فلأن أول الذكرين يقتضى التصريح، فيناسبه فى الثانى خلافه)[4].

غير أن هذا التفسير لم يضف إلى ما قاله الزمخشرى شيئًا ذا بال، أوَّلاً: لأن قوله: «لا يسأل عنه لأنه دورى» هو التفنن عينه، الذى قال به الزمخشرى، وثانيًا: لأن أول الذكرين ما جاء فى سورة الأنعام، وهى فى ترتيب نزولها بعد سورة هود[5]، فكان حق النظم بناء على هذا القول أن يأتى بالفاء فى «هود»، وبحذفها فى الأنعام، وعلى فرض إغفال ترتيب النزول، واعتماد ترتيب التلاوة، فإنه وُصل بالفاء فى سورة الزمر، وهى الأخيرة فى الترتيبين، فلماذا صرح فيها بالفاء وهى المذكورة آخرًا؟

وعلل الألوسى هذه المغايرة فى النظم بقوله: (وكأن الداعى إلى الإتيان بالأبلغ هنا دون ما تقدم، أن القوم -قاتلهم الله تعالى- بالغوا فى الاستهانة به،

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/ ٥٢.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ١٣١.
(٣) روح المعانى ١٢/ ١٢٧.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ١٣١.
(٥) يراجع البرهان ١/ ١٩٣.

عليه السلام، وبلغوا الغاية فى ذلك، فناسب أن يبالغ لهم فى التهديد، ويبلغ فيه الغاية)[1] ويقول الشيخ ابن عاشور بعد أن علل الفصل بتقدير السؤال: (ولكونه كذلك كان مساويًا للتقريع بالفاء، الواقع فى آية الأنعام فى المآل، ولكنه أبلغ فى الدلالة على نشأة مضمون الجملة المستأنفة عن مضمون التى قبلها، ففى خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدة ما ليس فى الخطاب المأمور به النبى ﷺ من اللين «فبما رحمة من الله لنت لهم»)[2].

وبالرجوع إلى ما قاله صاحب الفرائد -وقد سبق ذكره[3]- نجده يجعل الوصل بالفاء وسطًا بين الاستئناف بإن، والاستئناف بغيرها، لأن فى الفاء على حدّ قوله «شائبة تأكيد» ولذلك كان قولك: «اعبد ربك فالعبادة حق له» دون قولك: «إن العبادة حق له» وفوق أن تقول: «العبادة حق له» وبمقتضى ذلك فإن الوصل بالفاء أقوى فى مقام التهديد، لما فيه من شائبة التأكيد هذه التى أشار إليها الجونفورى، يعضّد ذلك أن القول فى هود منسوب إلى شعيب، والقول فى الموضعين الآخرين أمر من الله تعالى لنبيه، والأمر من الله تعالى يكتسب من جلاله وكبريائه، ما يجعل التهديد به أشد وأفظع، ثم إن ما فى الفاء من معنى التعقيب، وما يومئ إليه من قرب العذاب يتصعد بالتهديد ويتسامى به.

ويشهد لذلك استخدام الوصل بالفاء فى مقام الترغيب والترهيب، حيث كان الأمر صادرًا من الله تعالى فى قوله: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٠٥]. قال الجمل: (وقوله: «فسيرى الله عملكم» أى خيرًا كان أو شرًا، تعليل لما قبله، وتأكيد للترغيب والترهيب. والسين للتأكيد)[4] فإذا كانت السين للتأكيد، فإن دخول الفاء عليها يزيد الجملة تأكيدًا، لما تحمله من دلالة على قرب ذلك اليوم الذى يجازون فيه على عملهم. فالفاء بهذا المقام أحق وأولى.

---

(١) روح المعانى ١٢/ ١٢٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ١٥٣.
(٣) راجع ص١٠٧- ١٠٨ من هذا الكتاب.
(٤) الفتوحات الإلهية ٢/ ٣١٦.

أما حين يراد استمالة المخاطب، وحثه على التأمُّل، ودفعه إلى التساؤل، ليقع الجواب فى نفسه موقع المتشوّف إليه، المتعطش لسماعه، فإن الفاء تسقط من اللفظ، ليتحقق هذا الغرض. وهو ما نراه فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾ [الحجرات: ١١]. قال الزمخشرى: (وقوله: «عسى أن يكونوا خيرا منهم»، كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجودة لما جاء النهى عنه، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء)[1]. فالمنهى هنا هم المؤمنون، وقد أريد استنفارهم، وحثهم على اجتناب هذه الرذيلة، وإشراكهم فى البحث عن علة هذا النهى، ليكونوا أكثر حماسا فى اجتناب ما نهوا عنه، وفى لفظ «عسى» ما فيه من احترام الفكر، وتهيئته للقبول وحسن الاقتناع.

ومثله ما جاء فى خطاب المؤمنين أيضا: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٤]. فقد مهد القرآن للأمر «ادفع» بما حسّنه فى نفس المخاطب، من الدعوة إلى الله والعمل الصالح، حتى إذا ما جاء قوله: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة» كان قد تهيأ لأن يسأل: ماذا يصنع إذا قُذف بالسيئة؟ فكان قوله «ادفع بالتى هى أحسن» وما رتبه عليه من النتيجة الطيبة التى جعلت العدو يستحيل صديقًا حميما، رعيًا لتنبّه السامع، وكمال فطنته، وهو فى مثل هذا المقام أبلغ من الفاء، كما أشار إليه السعد حين قال: («ادفع» وصل خفى استئنافى هو أبلغ من «فادفع» بالفاء الصريح فى الوصل)[2]. مع ملاحظة أن السعد يجعل الاستئناف أبلغ من الوصل بالفاء أبدا، ونحن نراه أبلغ فى مقامه، لا فى كل حال، كما دللنا على ذلك فيما مضى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٥.

(٢) حاشية السعد ٢/ ٦٩٥.

الفاء بين الإحكام والإقحام

ليست هناك قولة تتناقض مع واقع لساننا العربى، كالقول بالزيادة. ففى الوقت الذى يجمع فيه أهل البيان على أن الإيجاز إلف عربى، وأنه ميدان السبق والتفوق بين المبدعين وفرسان البيان، يخرج علينا من يقول بإقحام كلمة لها دلالتها لتثقل اللفظ، دون أن تضفى على نسقها شيئا من معناها، ويكون إبقاؤها وإلقاؤها سواء. ولو أنهم ضربوا ذلك مثلا لما عيب به الكلام، وعدُّوه من هناته، لسلمنا لهم بما قالوا. أما أن يستشهدوا به على أنه من فصيح الكلام، ويستجيزوا وقوعه فى النظم المعجز، فذلك من خطل الرأى، وفساد القول. والعجيب أن كل ما قالوا فيه بزيادة الفاء، هو من الإيجاز الذى تتكاثر فيه المعانى وتقل الألفاظ، وتؤدى فيه الفاء معنى جملة بأكملها.

● **مبعث القول بزيادة الفاء**

بنى النحاة القول بزيادة الفاء على أنها أداة ربط، فإذا وقعت بين أمرين فيهما من روابط الإعراب ما يغنى عن الربط بالفاء حكموا بزيادتها، لأنها لم تفد من الربط ما هى حقيقة به، كما إذا وقعت بين المبتدأ وخبره، أو بين المفعول وفعله، أو كان هناك رابط غيرها، كالواو، وغير ذلك. يقول المرادى: «وأما الفاء الزائدة فهى ضربان: أحدهما الفاء الداخلة على خبر المبتدأ، إذا تضمن معنى الشرط. نحو الذى يأتى فله درهم، فهذه الفاء شبيهة بفاء جواب الشرط، لأنها دخلت لتفيد التنصيص على أن الخبر مستحق بالصلة المذكورة. ولو حذفت لا حتمل كون الخبر مستحقا بغيرها، فإن قلت: فكيف تجعلها زائدة، وهى تفيد هذا المعنى؟ قلت: إنما جعلتها زائدة، لأن الخبر مستغن عن رابط يربطه بالمبتدأ، ولكن المبتدأ لـمَّا شَابَه اسم الشرط دخلت الفاء فى خبره تشبيها له بالجواب. وإفادتُها هذا المعنى لا تمنع تسميتها زائدة، وبالجملة فهذه الفاء شبيهة بفاء جواب الشرط، ولتضمن المبتدأ معنى الشرط صُوَرٌ مذكورة فى موضعها. والثانى: التى

دخـولها فى الكلام كـخروجـها، وهذا الـقسم لا يقـول به سيـبويه، وقـال به الأخفش، وزعم أنهم يقولون: أخوك فوجد. واحتج بقول الشاعر:

وقـائلة خـولان فـانكح فـتـاتهم وأكرومة الحيّين خِلْوٌ كما هيا». (١)

بناء على هذا التقسيم للفاء الزائدة أصبح لدينا زيادة فى اللفظ، تتبعها زيادة فى المعنى، وهو ضرب من الإطـناب لا يخل بفصاحـة الكلام، وإن كان اسم الزيادة لا يليق بمثله، وخاصة حـين يطلق على ما وقع منه فى الذكر الحكيم. وزيادة أخرى خالية من الفائدة، يستوى فيها دخول الفاء وخروجها، وقد مثلوا لذلك بالفـاء فى قـوله تعـالى: ﴿**هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ**﴾ [ص: ٥٧]. وقوله عز وجل: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ [المائدة: ٣٨]. قال ابن الشجـرى: «وقوله: ﴿**وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٨]. جامـعت الفاء الواو، و«إلى» مـتعلـقة بما بعـد الفـاء، ولو وضعت «إلى» فـى محلهـا الذى تسـتحـقه لقـيل: وفارغب إلى ربك، ومـثله: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** ﴿٤﴾ **وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ [المدثر: ٤- ٥]. انتصب مـا قبل الفاء بما بعدها، وهذا من عـجيب كلام العرب، لأن الفاء إنما تعطف، أو تدخل فى الجواب، وما أشبه الجواب، كخبر الاسم الناقص، نحو: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٤]. وهى هـا هنا خارجة عما وضـعت له. ومثل ذلك دخولها فى الأمر المصوغ من كان، مع تقدم الخبر، كقول أبى الطيب:

ومثل سراك فليكن الطِّلابُ

وإنما جاءوا بها فى هذا النحو ليعلموا أن المفعول أو الخبر وقع فى غير موقعه، فـإذا لم يكن فى الكلام الواو ولا غـيرهـا من حروف العطـف، كقـولك: زيدا فاضـرب، فقـد قال أبو على: زيدا منصـوب بهذا الفعل، وليس تمـنع الفاء من العمل، قال: وتسمى هذه الفاء معلِّقـة، كأنها تعلق الفعل المؤخر بالاسم المقدم،

(١) الجنى الدانى ٧٠

وكأنـها هنا شـبيهـة بالزائد، ويدل على أن العـامل هو هذا الفعل قـولك: بزيد فامرر، لو لم تكن معلقة بامرر هذا لم يجز، لأنه لابد للباء من شيء تتعلق به، ولو علقتها بفعل آخر لاحتجت لهذا الفعل إلى باء أخرى انتهى كلامه.

وأقول: إنها زائدة لا محالة فى قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ لأنك إن لم تحكم بزيادتها أدى ذلك إلى دخول الواو العاطفة عليها. وهى عاطفة»[1].

أطلت فى النقل ليـتضح أن قـول النحـاة بزيادة الفاء، مـرجعـه إلى قواعـد الصناعة، لا إلى ما تفـيده الفاء فى مواقعها من أسـرار البيان، بدليل أن المرادى أصـر على تسمـيتهـا بالـزائدة، مع ما أفـادته من المعنى الـذى أوضحه، وبدليل ما ذهب إليه ابن الشجرى من وجوب القول بزيادتها فى مثل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ حتى لا يجتـمع عاطفان نظرا إلى أن المفعـول مقدم من تأخيـر، ولا يشفع لهذه الفاء تقدم المفـعول، وفصله بين العاطفين، ولا دلالتهـا على أن المفعول وقع فى غير موقعه، كما قال.

قواعد الصناعة التى دفعت النحاة إلى القول بالزيادة ما كان يحق لها أن تنتقل إلى الباحثين فى أسرار الكتاب المجيد، خاصـة ما قالوا فيه بالتسوية بين دخولها فى الكلام وخروجها منه، مما يشعر بأنهـا لغو وتطوُّل، وهو ما يقدح فى فصاحة أى كلام، فضلا عن البيان المعجز.

وقد أحسن الطبرى حين قال: (وغيـر جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام، إذ سـواء قيلُ قـائل: هو بمعنى التطـوُّل، وهو فى الكلام دليل على معنى مفـهوم. وقيلُ آخر فى جميع الكلام الـذى نطق به دليلا على ما أريد به: هو بمعنى التطول)[2].

قال الشيخ محـمود شاكر تعليقا عليه: (أراد الطبـرى أن ينفى مالجَّ فيه بعض النحاة من ادعاء اللغو والزيادة فى الكلام، فهو يقول: إذا كان للحرف أو الكلمة معنى مـفهوم فى الكلام، ثم ادعيت أنـه زيادة ملغاة فجائز لغـيرك أن يدعى أن

(١) أمالى ابن الشجرى ٣/ ٨٩.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٤٠.

جملة كاملة مفـهومة المعنى، أو كلاما كاملا مـفهوم المعنى، إنما هى زيادة ملغاة أيضا، وبذلك يبطل كل معنى لكل كلام، إذ يجوز لمدع أن يبطل منه ما يشاء بما يهوى من الجرأة والادعاء، وهذا تأييد لمذهبنا الذى ارتضيناه)[1].

● **فاء مُحْكَمة لا مُقْحَمة**

إن جلال النصّ القـرآنى، وإعجـاز نظمه يفرضـان على من يتعـرض لأسرار بيانه، أن يجعل همتـه فى البحث عما وشت به حروف المعانى فيمـا استرقته من مواقع، تبـدو للنظرة العجلى أنهـا طارئة عليهـا. فإذا وقع على سـرها، فذلك الدليل على بطلان القول بزيادتها، وإذا عجز عن الوصول إليه، فليقل: إن هناك سرا حجبه الله عنه، وسينزع الله هذه الحجب عن غيره.

بهذا اليقين نعرض للمواضع التى ينطبق عليها القول بزيادة الفاء فيها.

ونبـدأ بالآيـات الـتـى ذكرناها أمـثلة لما قالوا فـيه بزيادة الفـاء قال تعـالى: ﴿**هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ**﴾ [ص: ٤٩- ٥٧].

ففى الآية الأولى جاء قوله ﴿**هَذَا ذِكْرٌ**﴾ مفصحًا فـيه عن خبر اسم الإشارة، وفى قوله: ﴿**هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**﴾ طوى خبره، وكان ذكر الخبر قبلها مع اتحاد النسق فـى الآيتين دليلا على أن لـ«هذا» خبرًا مـحذوفا، يـومئ إلى جزاء المتقين، ويستـحضره فى ذهن المخاطب ليقابل به جـزاء الطاغين، وكأنه قال هذا النعيم يقابله للطاغين عذاب أليم. ثم جاء قوله: ﴿**هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ**﴾ مطويا فيه الخـبر كذلك، وكأنه حاضر فى ذهـن المتلقى، يومئ إليه اسم الإشارة

(١) هامش تفسير الطبرى ١/ ١٤٠.

ويجسده، ويمكن تقديره: هذا العذاب. وقوله ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ جملة أخرى ترتبت على هذا العذاب ترتب الجزاء على الشرط، للإشعار بملازمته لهم. وعدم الفرار منه. وقد ذكر المفسرون فى إعراب «هذا» عدة أوجه: أحدها: أن يكون مبتدأ خبره فليذوقوه، والثانى: أن يكون خبره «حميم» وجملة «فليذوقوه» معترضة بينهما، والثالث: أن يكون «هذا» خبرا لمبتدأ محذوف، تقديره: العذاب هذا، وجملة «فليذوقوه» مرتبة عليه ترتب الجزاء على الشرط، والرابع: أن يكون منصوبا بفعل مضمر يفسره المذكور، فيفيد الإضمار تكرار الذوق، كأنه قال: يذاقون العذاب إذاقة بعد إذاقة[1].

وأضعف هذه الأقوال هو الأول، لما يترتب عليه من زيادة الفاء، والوجهان الأخيران تظهر معهما بلاغة النظم، لما فى فاء الجزاء من التأكيد، وإيجاز الحذف، والدلالة على ملازمة الطاغين للعذاب، ولما فى الوجه الرابع من معنى تكرر ذوقهم العذاب، إلى ما فى الفاء -بمعنى التعقيب فيها- من الإيحاء بسرعة إلقائهم فى العذاب، وعدم إمهالهم.

وبمثل هذا فسّر البغدادى فى خزانته رأى سيبويه، حين قدر مبتدأ محذوفًا فى قول الشاعر: وقائلة خولان فانكح فتاتهم.

على أن المراد هذه خولان. قال البغدادى: (وعلى قول سيبويه، فالفاء إما لعطف الإنشاء على الخبر، وهو جائز فيما له محل من الإعراب، وإما لربط جواب شرط محذوف، أى إذا كان كذلك فانكح، قال سيبويه: قد يحسن ويستقيم أن تقول: عبد الله فاضربه، والهلال -والله- فانظر إليه.

وقال السيرافى: الجمل كلها يجوز أن تكون أجوبتها بالفاء، نحو: زيد أبوك فقم إليه، فإن كونه أباه سبب وعلة للقيام إليه، وكذلك الفاء فى «فانكح» يدل على أن وجود هذه القبيلة علة لأن يتزوج منهم، ويتقرب إليهم، لحسن نسائها وشرفها، وفيه إشارة إلى ترتب الحكم على الوصف)[2].

(١) يراجع: إملاء ما من به الرحمن ٤/٢٥٩، وحاشية الشهاب ٧/٣١٧.
(٢) خزانة الأدب ١/٤٥٥.

كـلام السـيـرافى بالغ الجـودة، لأنـه يكشف عن دور الفـاء فـى الربط بين الجملتين، ربط العلة بمعلولهـا، وما يصاحب ذلك من استشـارة المخاطب، وحثه على المبادرة بفعل ما أمر به، لتحصيل ما يُرَغَّب فيه، كما فى البيت، لذلك تكثر هذه الفاء فى مقام الحث على فعل مرغوب، أو التحذير من تركه.

ففى مـقام التـرغيب تشـير الفـاء إلى الأسبـاب التى تدفع المخاطب إلـى المبادرة بتحصيل ما أمر به، وتستحثه عليه، حين تعلق حصوله على مرغوبه بفعل المأمور به.

ومن أمثلته: قـوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٢- ٢٦].

لما قدم من مظاهر النعيم ما تتوق إليه نفس كل عاقل، دخلت الفاء فى قوله: ﴿**فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ لتربط بين الحصول على هذا النعيم، وبين العمل الجاد، والتسابق فى سبيل تحقيـقه، وكأنها تقول: إذا أردت أن تكون من هؤلاء المنعَّمين فبادر بالعمل، وسابق إلى الخيرات، وشـمر عن ساعد الجد، فلا سبيل إلى هذه المنزلة بغير التنافس والسبق. ففى الفـاء من الحث والإغراء ما لا يكون بحذفها، ولهذا قدم المعـمول «فى ذلك» على عامله لإفادة الحصر، والتـأكيد على أن ذلك هو مجال التنافـس الحقيقى، وما سـواه لا يستحق التسابق عـليه، ولك أن تقدر الشـرط علـى طريقة أهل الصناعة: إن كان تـنافس فليتنافس المتنافسون فى هذا لا فى سواه.

والحصر مـع هذه الفاء أوكد من الحصـر بغيرها، لما أن تقدير الشـرط والجزاء بالفاء ضرب من التوكيد، والحصر نفسه توكيد، فكانت الفاء توكيدا على توكيد.

ومثله قـوله تعالى على لسـان أحد المنعّمـين فى الجنة بعد أن شـاهد قرينه فى سـواء الجحيم، وقارَنَ بين ما أنعم الله به عليه، وبين ما صار إليه قرينه: ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ**

الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٥٥- ٦١].

إن سعادة المؤمن بما صار إليه، ومقارنته بما أصبح فيه قرينه، جعلته يهيب بالعاملين أن يخلصوا لهذا الفوز عملهم، فهو الجدير وحده بالتسابق إليه، ولذلك قدم المعمول «لمثل هذا» لإفادة الحصر، مع ما فى الإشارة إليه من زيادة الترغيب فيه، وما فى الفاء من معنى الجزاء وإفصاحها عن شرط مقدر من تأكيد الاختصاص، والمعنى: إن كانوا عاملين فليكن لمثل هذا عملهم.

وعلى غراره جاء قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨].

فإن تقديم هذه الأوصاف الجليلة التى نعت الله بها كتابه المجيد، ودلت على أنه جامع لمنافع الدين والدنيا، مزيل لكل الأدواء التى تصاب بها الأنفس والصدور، هاد لطريق الحق واليقين، هذه النعوت العظيمة تستحضرها الفاء الأولى بالإشارة إليها وتربطها بما ترتبه عليها، وهو ما عناه أبو البقاء بقوله: الفاء الأولى مرتبطة بما قبلها[1]، أما الثانية فهى المفصحة عن شرط محذوف، تقديره: فإن فرحوا بشىء فليفرحوا بذلك، وتقدير الشرط بهذا العموم يوحى بأنه ليس هناك شىء يستحق المبادرة باغتنامه والفرح له إلا هذا القرآن، وهو تأكيد للحصر، المدلول عليه بتقديم الجار والمجرور «بذلك». فاجتمع فى هذا الأسلوب من عوامل التأكيد والحث على استقبال القرآن استقبالا يليق بفيوض الرحمة التى يغمر بها هذه الأمة ما يشهد لهذا الموصوف بالإعجاز.

ومثل هذا من جريان الأوصاف على موصوف للترغيب فيه، ببناء الأمر عليه موصولا بالفاء، وإن لم يكن مثله فى تقديم المعمول، قوله: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي**

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٣٦.

أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. الفاء فى «فليصمه» تلميح إلى أن الأمر بالصيام مسبب عما تميز به هذا الشهر الكريم من نزول القرآن فيه، ليكون هدى للناس، فلهذا وجب شكر الله تعالى بصومه، لذلك ردّ الطيبى ما نقل عن الأخفش من القول بزيادة الفاء، فقال: «وأقول: يمكن أن يقال: الفاء ههنا للجزاء، فإنه تعالى لما بيَّن كون رمضان مختصا بالفضيلة العظيمة، التى لا يشاركه سائر الشهور فيها، فبيّن أن اختصاصه بتلك الفضيلة يناسب اختصاصه بهذه العبادة، ولولا ذلك لما كان لتقديم بيان تلك الفضيلة ههنا وجه، كأنه قيل: لما علم اختصاص هذا الشهر بهذه الفضيلة، فأنتم أيضا خصوه بهذه العبادة» (١).

وللفاء مذاق خاص حين تربط بين رسالات السماء، وتعكس ما بين شرائع الأنبياء من التواصل، وما بين النبيين من وحدة الغاية والهدف، وتستحث النبى عليه السلام على استكمال ما بدأه المرسلون، وبناء آخر لبنة فى صرح التوحيد: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [الشورى: ١٣ -١٥]. فالفاء الأولى فى قوله: «فلذلك فادع» هى التى تستحضر مع الإشارة وصية الله تعالى لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى من الدعوة إلى التوحيد، ونبذ التفرق، لتصل دعوةَ النبى بدعوة إخوانه من الأنبياء السابقين، وتربط بين أولى العزم من المرسلين فى منهاج الدعوة، ووحدة ما يدعون إليه، ثم تجىء الفاء الثانية لتتعاون مع الحصر المفاد من تقديم المجرور، فى وجوب تكثيف جهود النبى الكريم، وتسخير كل طاقاته لاستكمال صرح التوحيد،

(١) فتوح الغيب ٢/ ١٥٣.

فيزداد الاختصاص توكيدا بفاء الجزاء المشعرة بشرط محذوف، يقدَّر عاماً ليقع التركيز والاهتمام على جوابه، كأنه قيل: فإن كنت داعيا إلى شيء فادع لهذا التوحيد، وانبذ دواعى الفرقة التى بثها أهل الكتاب بغيا بينهم.

فانظر كيف كانت الفاء الأولى واسطة العقد بين فرائد النبوة، حين ربطت دعوة النبى عليه السلام بدعوة النبيين قبله، وأبرزت وحدة الغاية فى دعوتهم، وكيف تعاونت الفاء الثانية بإفصاحها عن شرط عام، فى تركيز الاهتمام على الأصل الذى يجمع بينهم، وهو التوحيد، وحث النبى الكريم على حصر جهوده فى الدعوة إليه، أفيمكن مع هذا قبول القول بالزيادة؟

والمتأمل للنظم الحكيم لا يكاد يخطىء هذه الفاء فى مقامات الترغيب، وما تؤديه من دور فى إلهاب المخاطب، وتهييجه لتحصيل المأمور به، حين تجعله الغاية الوحيدة، التى تستحق أن يصرف همته وعنايته إليها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٣ -٦٦].

فإن الغاية هى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وقد مهّد الله لذلك بمقدمة أعلن فيها اختصاصه بمُلك السموات والأرض. وهيمنته على ما خلق، ونعى على من يتوجهون بالعبادة إلى من لا يملك من الخلق شيئا، ثم حذر من الإشراك بالله على أبلغ صورة حين ساقه فى خطاب موجه إلى النبى الكريم، وإلى الأنبياء من قبله، بادئا بالتحلية قبل التخلية، مترقيا من النهى عن الشرك إلى الأمر بإخلاص العبادة لله، فكان قوله: «بل الله فاعبد» قمة أهداف النبوة، وغاية ما أرسل من أجله النبيون، فقدم المفعول لإفادة الحصر، وبه وحده يتحقق الغرض من نبذ الشرك، إذ لو قال: فاعبد الله لما تحقق المطلوب من القضاء على

عقـائد الشرك عند من يجـمعون بين عـبادته وعبـادة الوسائط، المقـرّبة إليه فى زعمهم، ثم جاءت الفـاء مؤكدة هذا الحصر حين أفـصحت عن شرط، تقديره: إن كنت عابدا فاعبد الله، إشعارا بأن عبـادة غير الله تعالى ليست بعبادة، بل هى عين الضلال والكفـر، حين تشرك من لايملك من الخلق شيـئا مع من له الخلق والأمر. يقول السعد فى حاشيتـه على الكشاف: «وقد يؤكد الاختصاص بدخول الفاء فى الفعل، مثل: زيدا فـاضربه، وعليه قوله تعالى «بل الله فاعـبد»«فبذلك فليـفرحـوا» «وربك فكبـر» أى إن كنت عـابدا فالله اعـبـد، وإن فرحـوا بشىء فليخصوه بالفرح. وذكر المصنف فى قوله تعالى: «وربك فكبر» أى اختص ربك بالتكبير، ودخول الفاء لمعنى الشرط، كأنه قـيل: مهما يكن فلا تدع تكبيره، أى مهما يكن من شىء فلا تترك وصفه بالكبرياء»[1].

هـذه الفـاء التـى قـيـل بزيادتها آية مـن آيات الإعـجاز، فى قـوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ [المدثر: ١- ٥]. وهو من أوائل مـا نزل على قلب الرسول من آيات التـحدى. وجرِّب -إن شئت- حذف الفاءات الثلاث الأخيرة، فسترى أن ذوبا من موسيقى اللفظ قد تفلت من سمعك، وتسرب مـن بين يديك معنى الاستنهاض والمبادرة، والإصرار على تجاوز كل العـقبات التى تعترض طريق تبليغ الدعـوة، والنفاذ بها إلى الأسماع والقلوب.

لقد أصاب الزمخشرى كل الإصابة فى جعل الفاء التى قيل بزيادتها فاء الجزاء فى قوله: ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ وقدر الشرط معها عـاما، فقال: (ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كـان فلا تدع تكبيره)[2] فإن تقدير الشرط بهذا العموم: مهما يكن من شىء، فيه استنهاض للرسول عليه السلام، وحفزٌ له على تقويض ما أقامـه المشركون من قواعد الشـرك، وتقوية لروح الإصرار والتحـدى لما عساه يلقاه من صلف المشـركين وعنادهم، فكأنه يقول: مـهما صادفك من عـقبات،

(١) حاشية السعد ١/ ٣٢٣.
(٢) الكشاف ٤/ ١٨٠.

ومهما جابهك من قوى الشرك العاتية، فلا تدع ما أمرت به من تخصيص الله بوصف الكبرياء، وفى ذلك تهوين من شأن كبرياء قومه وغرورهم، فالله أكبر من كل كبير، وهذا يتلاءم مع روح الاستنهاض السارية فى النص كله، بدءا من الوصف بالمدثر، المشعر بأنه لا وقت للراحة والنوم بعد الآن، فعليه أن يخلع ما يعوقه عن الحركة، ويشمر عن ساعد الجد، ومرورا بلفظ «قم» الدال على وجوب التأهب والاستعداد للمواجهة، والتحلى بالعزم والتصميم، وانتهاء بالدعوة إلى الصبر والتحمل لما سيتعرض له من أذى المشركين، ابتغاء رضوان الله، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ هذا إلى جانب ما تبثه هذه الفاء فى سياقها من المبادرة بتحقيق ما أمر به النبى الكريم.

ولعل روح الاستنهاض هذه هى التى دفعت الزجاج فيما حكاه عنه القرطبى إلى جعل الفاء من قوله «فكبر» فى معنى جواب الأمر، المنصوص عليه قبل الفاء فى قوله «فأنذر». يقول القرطبى: (الفاء فى قوله «فكبر» دخلت على معنى جواب الجزاء، كما دخلت فى «فأنذر» أى قم فأنذر، وقم فكبر ربك)[1].

وليس ذلك بعيدًا عن أغراض النظم ودواعيه حين يُجعل التأهب المعبر عنه بالقيام وسيلة لتحقيق هذه الغاية العظيمة من تكبير الله تعالى.

إن هذه الفاء بحق هى ركبة البعير كما قيل، إن نزعت تلاشت من السياق هذه الحركة السريعة الدائبة التى تسرى فى النص الكريم كله، وتفككت أوصال النظم التى كانت الفاء تعقد بينها.

ومن عجيب أسرار هذه الفاء التى يقول النحاة بزيادتها، ما تراه فى دخولها على الأمر بالتهجُّد أو التسبيح، حين يكون الليل زمن وقوعه، فيحرص النظم الكريم على تخصيصه بما يميزه عن الأمر بالتسبيح فى النهار، فيقدم زمن الليل مجرورا بمِن على الأمر، ثم يدخل الفاء عليه، لتسبغ مزيدا من العناية والاهتمام على العبادة فى هذا الوقت، الذى لا تنشط فيه النفس للعبادة، مؤكدة

(١) تفسير القرطبى ١٠/ ٦٨٥٤.

فضل قيام الليل والذكر فيه، وهو ما لا تجد مثله حين يكون الأمر بالتسبيح فى النهار، وذلك ما رصدتُه بعد طول تأمل.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩] قُدّم الليل على الفعل، وسلُط التهجُّدُ على ضميره، للإشعار بتكرر التهجد، ودخلت الفاء للحث على التزام هذه العبادة، وكأن الليل سبب يرتبط بها، وذلك لما فى عبادة الليل من المشقة والكلفة، وثقلها على النفس، إلا من وفق الله لطاعته، وهو صريح قوله تعالى: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ [المزمل: ٦].

ثم انظر كيف تغيّر النظم إلى التقديم ودخول الفاء فى تسبيح الليل بعد تركهما فى تسبيح النهار من قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾ [ق: ٣٩- ٤٠] فلم يقل: وسبحه بالليل كما قال: وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، للتأكيد على فضل التسبيح والعبادة ليلا. ومثله قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾**﴾ [الطور: ٤٨- ٤٩].

ففى الموضعين قدم الأمر بالتسبيح على زمنه، حين كان المطلوب إيقاعه نهارا أو قريبا منه، ولم يقترن الأمر بالفاء، وحين قُيّد التسبيح بالليل غوير نسق النظم بتقديم المجرور، وأدخلت الفاء بينهما، ليتأكد الأمر بطريقين: هما التقديم، والفاء المفصحة عن شرط محذوف كأنه قيل: إن كنت مسبحا بحق أو متهجدا فخص الليل به، لأنه أعظم أوقات العبادة، وأكثرها تعرضا لنفحات ربك، وهى الجديرة بأن تبلغك المقام المحمود، أفيكون ذلك النسق المتكرر فى القرآن، الهادف إلى مغالبة هوى النفس وركونها إلى السهل اليسير قد جاء مصادفة، حتى يقال: إن الفاء فيه زائدة؟

وتأمل كيف تشعر الفاء بما فيها من معنى السببية، باستحقاق الله تعالى التوكل عليه، ووجوب إخلاصه له، وتشعر بما فيها من الربط، بالتأسى والاقتداء، حين

تربط توكل المؤمن بتوكل الأنبياء، وهم القدوة فى توكلهم على الله تعالى، وقد تكرر ذلك فى دعوة الأنبياء عليهم السلام. قال تعالى على لسان يعقوب: ﴿ **يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال على لسان الرسل الذين كذبتهم أقوامهم: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [إبراهيم: ١٢].

فقد حققت الفاء فى قوله ﴿ **فَلْيَتَوَكَّلِ** ﴾ عدة أغراض، أولها: تأكيد الاختصاص المدلول عليه بتقديم المجرور، بإفصاحها عن شرط محذوف، فيكون فى تأكيدها للتلازم بين الشرط والجواب تأكيد للحصر، وثانيهما: دلت عليه بمعنى التعقيب فيها، وهو المبادرة بإخلاص التوكل على الله تعالى، والثالث: بدلالتها على الترتيب والتسبيب، فيكون ترتيب توكل المؤمنين على توكل المرسلين، مشعرا بضرورة الاقتداء والتأسى بهم فى توكلهم، الذى يخصون به ربهم، ولا يدَعون فى قلوبهم شائبة اعتماد على سواه. وبهذه النكتة الأخيرة صرح الشهاب فى الآية الأولى، فقال: (قصد الاختصاص أوجب تقديم الصلة عليه، وقد دخل عليها العاطف، فلما قصد تسبب توكلهم على توكله، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقتدى بهم، وجب دخول الفاء لبيان التسبب)[1].

وفى مقام الترهيب تكسب الفاء مدخولها ضربا من التهويل، وتبث فى نفس المخاطب من الخوف والرعب ما لا تنهض به جمل عدة قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ [الزمر: ١٥- ١٦].

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٩٣.

الفاء فى قوله «فاتقون» تُضاعف الأمر بالخشية، وتتصعّد به حتى تبلغ القلوب الحناجر، باستحضارها صورة الخاسرين يظللهم العذاب من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، فَتَلْفِت المأمورين بالتقوى إلى ما ينتظرهم من مثل هذا الجزاء إن هم اجترءوا على الله تعالى، واستهانوا بعقابه، فلم يتقوه. فهى فى عرف أهل الصناعة فاء الجزاء المفصحة عن شرط محذوف، يمكن تقديره: إن أردتم تجنب هذا العذاب فاتقون. وهى فى ذوق أهل البيان تثب بالمخاطب المأمور بالتقوى لتضعه على حافة العذاب، يسمع صرخات المعذبين، ويرى ما ينزل بهم، لتقول له: هذا مصيرك إن لم تتق الله. فإذا ما جردتَ الأمر من الفاء، فقلت: يا عباد اتقون، افتقدتَ ما كان له مع الفاء من التلويح بعذاب كعذاب الخاسرين، وصار مجرد أمر بالتقوى مبتوت عما قبله، وضاع معه التهديد بالعذاب.

ويشتد لفح هذه الفاء فى مثل هذا المقام من التحذير، حين يُقدم معمول الأمر، ويشتغل الفعل بضميره، فتدخل الفاء، لتكسب الاختصاص بالتقديم توكيدا، ويؤدى اشتغال الفعل عن المقدم بضميره إلى إفادة تكرير التحذير، فيجتمع فى هذا الأسلوب من وسائل المبالغة فى التحذير ما يشهد بإعجاز النظم الحكيم، وهذا ما نراه فى فاصلتى الآيتين من قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ**﴾ [البقرة: ٤٠- ٤١].

لم يكن لبنى إسرائيل عهد، ولم يفوا مع الله بوعد، حتى قال فيهم: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ**﴾ [المائدة: ١٣] فأعقب أمره بالوفاء تحذيرا من الاجتراء على الله، والاستهانة بعهوده ﴿**وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ**﴾، كما أعقب الأمر بالإيمان بكتابه، والنهى عن الكفر به، وتحريفه للتكسب من ورائه، تحذيرا آخر، وبنفس الأسلوب ﴿**وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ**﴾ وفيهما قدم المفعول «إياى» لإفادة التخصيص، ودخلت الفاء على الأمر، دالة على شرط محذوف، تقديره: إن

كنتم راهبين شيئا فإياى ارهبوا، وإن كنتم تتقون شيئا فإياى اتقوا، ليزداد الاختصاص توكيدا، بما يدل عليه هذا الشرط من أن الله هو الحقيق بالرهبة والتقوى، وتشعر الفاء معه بوجوب المبادرة بالفعل. ثم إن اشتغال الأمر بالعمل فى الضمير المتصل المحذوف، وهو ياء المتكلم يستوجب تقدير فعل آخر يعمل فى الضمير المنفصل المقدم، والأصل: فإياى ارهبوا ارهبونى، ومفاده تكرير الأمر بالرهبة، كأنه قال: ارهبونى رهبة بعد رهبة، وهى زيادة فى المعنى ومبالغة فى التحذير، أشاعتها الفاء بتعليقها الفعل بعدها عن العمل فيما قبلها. وذلك ما ألمح إليه الزمخشرى وفصَّله شراحه، كما جاء فى حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف: («إياى» منصوب بفعل مضمر يدل عليه «فارهبون» كما فى باب الإضمار، لا أنه فرد من ذلك الباب، كما يقال، «ومنه» إذا كان مشابها له نوع مشابهة، وهو أوكد فى الاختصاص، لأن تقدير الكلام (وإياى ارهبوا فارهبونى) وإنما يقدر الفعل مؤخرا، لأنه لو قدمناه لكان فى الكلام تغيير آخر، وهو جعل الضمير متصلا منفصلا. ففيه وجهان للتخصيص، أحدهما: تقديم المفعول، والآخر: تكرر تعلق الرهبة بالمتكلم، فإن تكرار الفعل لشىء يدل على مزيد اختصاص له به، فإن قلت: كيف عطف «فارهبون» على «إياى ارهبوا» مع اتحادهما فى المفهوم، والعطف يقتضى المغايرة؟ فالجواب أن الفاء تقتضى أن تكون الرهبة المستفادة من «فارهبون» بعد الرهبة المستفادة من «إياى ارهبوا». وليس معنى الكلام إلا: ارهبونى رهبة بعد رهبة، فيكونان متغايرين قطعا، وهذا كما قال المصنف فى قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا**﴾ [القمر: ٩] أى كذبوا تكذيبا بعد تكذيب ففيه إشعار بمزيد الاختصاص، وقوله: «وهو أوكد فى الاختصاص»، لأن الاختصاص فيه يفهم من وجهين: أحدهما من تقديم المفعول، والثانى من الفاء الجزائية فى قوله «فارهبون» فإن التقدير إن كنتم راهبين شيئا فارهبونى، ولا شك أن هذا تخصيص لاستلزام الرهبة المطلقة حينئذ رهبة الله، فتكون رهبتهم محصورة فى الله تعالى»[1].

(١) حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ١/ ٢٠٩.

وبذلك تتفاوت هـذه الأساليب فى دلالتها على الاختـصاص، تبعا لاقـترانها بالفاء أو تجردها منهـا، وقد حصرها صاحب التـحرير والتنوير فى أربع مراتب، أوكدها ما اقترن التقـديم فيه بالفاء، والمقترن بالفاء مرتبتان، أبـلغهما ما جاء فى الآيتين السـابقتين (فتـحصَّل أن فى التعبـير عن مثل هذا الاختـصاص فى كلام البلغاء مراتب أربع: مجـرد التقديم للمفعول، نحو: إياك نعـبد، وتقديمه على فعله العامل فى ضمـيره، نحو زيدا رهبته، وتقديمه على فـعله مع اقتران الفعل بالفاء، نحو «وربك فكبـر»، وتقديمه على فعله العامل فى ضمـيره، مع اقتران الفعل بالفاء، نحو: «وإياى فارهبون»[1].

وفى مقام التشنيع على الذين يؤذون الضعـفاء، ولا يدعون إلى الخير، دخلت الفاء لتجمع بينهم وبين منكرى الجـزاء فى قرن، وتجعلهم عين المكذبين بالدين، فـى قـوله تعـالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الماعون: ١-٣] فـقد ربطت الفـاء بين المكذب بالدين، وبين من يدعُّ اليتيم، وأفرغتهما إفراغا واحدا، وعلقت رؤية الأول برؤية الثـانى تعليق الجـزاء بالشـرط، على مـعنى: إن لم تكـن رأيت المكذب بالدين وعرفـته، فهـو ذلك الذى يدع اليتيم، وليس هناك تفـظيع لحال من ينهر اليـتيم ويؤذيه، ويمنع الخيـر عن الناس، أشد من وصـفه بالتكذيب بالجزاء، وهو كـفر صـراح. وكأن مـثـل هـذا الفعل من إيذاء اليتـامى وترك الحض على الإطعام، لا يكون من شأن المسلم أبـدا، وأنك إذا ما رأيته فى امرئ فـاحكم بأنه ليس من أهل الإيمان.

ومن روائع مواقع هذه الـفاء التى قيل بزيادتهـا، ما تدخل فـيها على الخـبر، فتـربط بينه وبين المبـتدأ برباط التـسبب، لتـحقيق أغـراض تتنوع بتنوع السـياق ودواعى النظم، فإن قال النحاة بزيادتها لوقـوعها بين جزأى كلام يرتبطان ارتباطا معنويا لا يحتـاج إلى رابط لفظى، فإنهم يُغفلون ما أدته الفـاء من ارتباط خاص

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٥٧.

زائد عن ارتباط الخبر بالمخبر عنه، وهذه الخصوصية الزائدة هى الغرض ومناط فائدة الكلام، لذلك تجد من تفاوت الأسرار البيانية مثلما تجد من تفاوت اللفظ، بين ما نسق فيه الخبر بالفاء، وما نسق بغيرها. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٠- ٩١].

فإنك لتعجب كيف خولف نسق الخبر عن الكافرين، فعُرى عن الفاء فى الآية الأولى ﴿**لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾ ثم اقترن بها فى الثانية ﴿**فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا**﴾، مع أن صوغ المبتدأ، وهو الموصول المنسوخ بإنَّ فى الآيتين واحد، ولا يزول عجبك إلا بعد التأمل فى أعطاف النص، وإنعام النظر فيما عطف على الكفر فى الآيتين، فأنت تجده فى الأولى ﴿**ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا**﴾، وفى الثانية ﴿**وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾، فهو فى الأخيرة قطع باستحقاقهم عدم القبول، واستيجابهم العذاب لموتهم على الكفر، وانقطاع الأمل فى إيمانهم، فدخلت الفاء، للإشارة إلى أنهم استحقوا بموتهم على الكفر عدم قبول التوبة، وتبعه الحكم عليهم بعذاب النار ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، أما فى الأولى فلم ينقطع الرجاء فى إيمانهم، وإن كانوا قد ازدادوا كفرا، إذ لو تابوا قبل موتهم لقبلت توبتهم، فهم لم يستوجبوا بَعْدُ عدم قبول التوبة استيجاب من ماتوا على الكفر، ولذلك حكم عليهم بالضلال، ولم يوجب لهم العذاب. وقد أوجز أبو حيان الفرق بين الخبرين فقال: (ولم تدخل الفاء فى ﴿**لَّن تُقْبَلَ**﴾ هنا، ودخلت فى ﴿**فَلَن تُقْبَلَ**﴾، لأن الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السابق، وهناك قال: ﴿**وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾ وهنا لم يصرح بهذا القيد)[1].

وهذان خبران آخران: الأول بيان لجزاء المؤمنين، والثانى جزاء للكافرين، تدخل الفاء فى الأول لتشير إلى المبالغة فى تحققه، بما فى الفاء من معنى السببية

(١) البحر المحيط ٢/ ٥١٩

الدال على ارتباطه بالمخبر عنه، ارتباط العلة بالمعلول، وتَسْقُط من الثانى، دليلا على تسامح الله فى وعيده. وذلك فى قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٥- ٣٦]. قال البيضاوى فى تعليل دخول الفاء فى قوله ﴿**فَلا خَوْفٌ**﴾ وسقوطها فى ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾، وكلاهما خبر عن موصول: (وإدخال الفاء فى الخبر الأول دون الثانى، للمبالغة فى الوعد، والمسامحة فى الوعيد)[1] وفسّر الشهاب وجه المبالغة بقوله: (ووجه المبالغة فى الوعد، لعدم تخلفه جعله سببًا عن التقوى والعمل الصالح، المشعر بأنه لا ينفكُّ عنه، إذ المعلول لا يتخلف عن العلة غالبا، بخلاف الوعيد، فإنه يجوز تخلفه)[2] والعجيب -والقرآن لا تنقضى عجائبه- أنك تجد هنا نكتة استوجبت دخول الفاء فى جزاء المؤمنين، وطرحها من جزاء الكافرين، وتجد فى موقع آخر منه نكتة استوجبت عكس ذلك، فتدخل الفاء فى جزاء الكافرين، وتسقط فى جزاء المؤمنين، مما لا تملك معه إلا أن تخرّ ساجدًا لعظمة من أنزل هذا الكلام. فإذا كانت الفاء فى المثال السابق قد أدت دورها فى المبالغة فى تحقيق الوعد، وأدّى سقوطها إلى المسامحة فى الوعيد، فإنها فى قوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [الحج: ٥٦- ٥٧] دل طرحها على أن دخول الجنة بفضل الله تعالى، لا بسبب عملهم الصالح، على ما جاء فى حديث الرسول عليه السلام: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» فألقيت الفاء التى تربط بين المبتدأ والخبر برباط السببية لهذه النكتة، ودخلت الفاء فى جزاء الكافرين، للإشارة إلى عدل الله فى العقاب، فما كان هذا الجزاء الأليم إلا بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله،

(١) تفسير البيضاوى ٤/ ١٦٦.
(٢) حاشية الشهاب ٤/ ١٦٦.

وهذا ما أفاض الله به على قلب البيضاوى: (فإدخال الفاء فى حيِّز الثانى دون الأول، تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم، ولذلك قال: ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ**﴾ ولم يقل: هم فى عذاب)[1].

وقريب من هذا إدخال الفاء وطرحها فيما اشتبه نظمه من قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٢]. وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٤].

لفَت دخولُ الفاء على قوله: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ فى الآية الثانية دون الأولى، نظر الزمخشرى، فحاول بيان السر فى ذلك: (فإن قلت: أى فرق بين قوله ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ وقوله فيما بعد: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾؟ قلت: الموصول لم يضمَّن ههنا معنى الشرط، وضمنه ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى: أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة)[2].

لكن الزمخشرى لم يقل لنا ما سر اختصاص كل منهما بموضعه، ولم دخلت الفاء لتدل على ما دلت عليه فى الثانية دون الأولى؟ ولعمرك هذا هو عمل البلاغيين، وما قاله الزمخشرى تحرير للمعنى. لا تفسير لبلاغة النظم.

ثم تقدم البيضاوى خطوة حين أشار إلى أن ترك الفاء أبلغ فى وصف المنفقين، فقال: (لعله لم يدخل الفاء فيه، وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط، إيهاما بأنهم أهل لذلك، وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا)[3].

وبنى عليه أبو حيان، ولكنه لم يضع اللبنة الأخيرة فى بلاغة هذا التركيب، فقال: (والجملة من قوله: ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ خبر، ولم يضمَّن المبتدأ معنى اسم

---

(١) تفسير البيضاوى ٦/ ٣٠٨.
(٢) الكشاف ١/ ١٩٤
(٣) تفسير البيضاوى ٢/ ٣٤٢.

الشرط، فلم تدخل الفاء فى الخبر، وكأن عدم التضمين هنا، لأن هذه الجملة مفسرة للجملة قبلها، والجملة التى قبلها أخرجت مخرج الشىء الثابت المفروغ منه، وهو تشبيه إنفاقهم بالحبة الموصوفة، وهى كناية عن حصول الأجر الكثير، فجاءت هذه الجملة كذلك، أخرج المبتدأ والخبر فيهما مخرج الشىء الثابت المستقر، الذى لا يكاد خبره يحتاج إلى تعليق استحقاقه بوقوع ما قبله، بخلاف ما إذا دخلت الفاء، فإنها مشعرة بترتب الخبر على المبتدأ واستحقاقه به)[1].

تمام هذا الكلام أن يقال: لماذا أخرج الخبر فى هذه الآية مخرج الشىء الثابت المفروغ منه، ولماذا كان غير محتاج إلى تعليق بالفاء؟

وهو فيما أرى -والله أعلم- أن ما وصف به المنفقون فى الآية التى عريت عن الفاء أعظم وأبلغ مما وصفوا به فى الثانية، فهو فى الآية الأولى صرّح بإخلاص نفقتهم لله تعالى بقوله ﴿**فِى سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، واكتفى فى الثانية بما يدل على كثرة إنفاقهم وتنوُّعه بين السر والعلانية، ثم زاد فى الآية الأولى ﴿**ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى**﴾ وهذه درجة عالية فى سماحة النفس واعتيادها على هذا العمل الجليل، حتى ألفَتْه، وجادت به سخية نشطة، وكانت «ثم» دليلا على أن هذا الوصف أبلغ من الإنفاق ذاته، بما دلت عليه من التفاوت الرتبى، إيماء إلى أن الجود عن سماحة ورضا يحولان بين المنفق وبين إتباع نفقته بما يبطلها هو أعظم ما فى الإنفاق، فكان هذا دليلا بينا على ثبات أجرهم واستحقاقه، حتى لم يعد للفاء المؤكدة للاستحقاق مكان، لنصل إلى النتيجة التى قررها أبو السعود وإن لم يذكر أسبابها، وهى أن (تخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق، وترك اتباع المن والأذى أمر بيّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببية)[2] فهذه نتيجة ذكرنا نحن مقدماتها وأسبابها.

ويلفت السعد التفتازانى إلى نكتة لطيفة فى الفاء من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ**

(١) البحر المحيط ٢/ ١٩٠.
(٢) تفسير أبى السعود ١/ ٢٥٨.

اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩- ١٦٠] فقد ألقيت الفاء من الخبر فى الآية الأولى، ودخلت فى خبر التائبين تعظيما لتوبتهم وتأكيدا على أنها السبب الذى استحقوا به رحمة الله تعالى وغفرانه، فعلل السعد طرح الفاء فى الأولى بقوله: (ولم يأت بالفاء فى الخبر، أعنى ﴿**أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ**﴾ لئلا يتوهم أن لعنهم إنما هو بهذا السبب، بل له أسباب جمة)[1].

رحم الله السعد!! لقد كنت على وشك أن أقول إن إلقاء الفاء هو من باب المسامحة فى الوعيد، وإن اقترانها بالخبر فى قوله ﴿**فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾ هو من باب المبالغة فى تحقق الوعد، كما كان فى مثله من آيتى الأعراف السالفتين، لكن السعد كان أصدق حسّاً حين رأى أن هؤلاء الذين ارتكبوا جناية الكتمان، وأتبعوها جنايات أشد ترتبت على هذا الكتمان طواها القرآن هنا، ونشرها فى مواضع أخرى، وهى تحريف كلام الله، ولَبس الحق بالباطل، والتكسب بذلك، على ما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٤١- ٤٢] فكان طرح الفاء من قوله ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦١] إشعارا بأنهم استحقوا هذه اللعنة بهذا الذى وصفوا به وبغيره مما لم يذكر، ثم جاءت الفاء فى قوله ﴿**فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾ إشعارا بأن الله تعالى تسبق يده إلى التائب، فور إقباله على ربه بالتوبة، وأن الله تعالى لا يغلق الباب دون من لجأ إليه صادقا فى توبته.

ومن دقائق الحس فى فقه بلاغة القرآن ما التقطه الطيبى من إشارة الفاء فى قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [آل عمران: ٢١].

---

(١) حاشية السعد ١/ ٤٤٦.

فالذين تنسب إليهم الآية قتل الأنبياء، وقتل الهداة الصالحين، الآمرين بإقامة العدل بين الناس، هم من غبر من أسلاف اليهود، والمأمور بأن يبشر بالعذاب هو رسول الله ﷺ، وليس من سبيل لتبشير الأجيال الغابرة منهم، فوجب أن يكون تبشيره بالعذاب لمن عاصروه من أخلافهم، فدخلت الفاء لتذكر اليهود الحاضرين بأن عذابا من الله ينتظرهم، إن هم مضوا على سنة أسلافهم، وهموا بقتل النبى وصالحى هذه الأمة، ولولا هذه الفاء التى ربطت الخالف بالسالف، والحاضر بالماضى لما انتظم فصل الآية مع صدرها فى سلك، وهذا ما كشف عنه الطيبى فى قوله: (وفى دخول الفاء على الخبر ههنا بعد دخول «إنَّ» على المبتدأ إشارة لطيفة، وهى أنهم إن بقوا على ما كانوا عليه، وأصروا عليه من الارتضاء بما فعل المقدمون منهم، والعزم على ما هموا به من قتل النبى ﷺ والمؤمنين فبشرهم، لأنهم مستحقون للتبشير بذلك، وإن رجعوا عن الله وأسلموا لم يستحقوا ذلك، فكانوا كسائر المؤمنين، ولا تحصل الإشارة بدون الفاء)[1].

إنه عدل الإسلام وسماحته، يجسده الله تعالى فى هذه الفاء، حين تنادى على أن الجزاء مرهون بالعمل، وتربط الأسباب بمسبباتها، لا أثر لعصبية عرقية، أو ثقافية، ولا تحمل خالفة عن سالفة وزرها، فليس من قانون الوراثة فى الإسلام أن يُلعن الأبناء بتاريخ آبائهم، إلا إذا كانوا هم صفحة فى هذا التاريخ بما سطروه بأيديهم.

ومن روائع مواقع الفاء التى قيل بإقحامها بين المبتدأ والخبر، ما أوجزه البيضاوى وبسطه الشهاب فى قوله تعالى خطابا لليهود: ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ**﴾ [الجمعة: ٨] فقد أشعرت الفاء بمفاجأة المخاطبين بعكس ما سعوا إليه، وباغتتهم بالهلاك فيما ظنوه سببا للنجاة، فهم يفرون من الموت ليجدوا أنفسهم فى قبضته، فكان تعكيس الحال الذى أبرزته الفاء، وما جسده من المرارة وخيبة الرجاء، هو سر دخولها فيما لا يلزم الدخول فيه. قال البيضاوى:

(١) فتوح الغيب ١/ ورقة ١٥٨

(﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ لاحق بكم لا تفوتونه، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وكأن فرارهم يسرع لحوقه بهم)[1] وعلق الشهاب على ذلك فقال (قوله: «وكأن فرارهم يسرع لحوقه» أى الموت بهم، هو من الفاء فى قوله ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ فإنها تفيد تعقيب ملاقاته المفسّرة باللحوق فيما مر، وليست هذه الفاء لازمة كالتى فى الجواب الحقيقى، فإقحامها لنكتة تليق بالمقام، وهى ما ذكر، فكان الفرار الذى أعدوه سببا للنجاة سببا للهلاك تعكيسا للحال)[2].

ففى هذه الفاء رائحة الاستعارة التهكمية حيث يشبه ما يفترض أنه سبب للنجاة بما هو سبب للهلاك، ولذلك حمل بعض رجالات البيان مثل هذه الفاء على اللام فى قوله تعالى ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨]. وذلك عند تفسير كلام الزمخشرى للفاء فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الزمر: ٤٥ - ٤٩]. فقد جعل الزمخشرى قوله: «فإذا مس الإنسان ضر دعانا» معطوفًا على «اشمأزَّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، ومسبَّبا عنه، وهو خلاف الظاهر، لأن الاشتمئزاز لا يتسبب عنه اللجوء إلى الله، بل الظاهر هو العكس، قال الزمخشرى (فإن قلت: من أى وجه وقعت مسببة، والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه، بل هو مقتض لصدوفهم عنه؟ قلت: فى هذا التسبيب لطف، وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسه ضر التجأ إليه، فهذا تسبب

(١) تفسير البيضاوى ٨/ ١٩٥.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ١٩٥.

ظاهر لا لبس فيه، ثم تقول: زيد كـافر بالله، فإذا مسه ضر التجـأ إليه، فتجيء بالفاء مجيـئك به ثمة، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجـاء المؤمن إليه، مقيم كفـره مقـام الإيمان، ومجـريه مجراه فى جـعله سببًا فى الالتجاء، فأنت تحكى ما عكس فـيه الكافـر، ألا ترى أنك تقصـد بهذا الكلام الإنكار والتـعجب من فعله)[1].

وعلق السعد عليه بقوله: (حـاصله الدلالة على تعكيس الكافر الأمر، وجعله ما هو أبعد الأشياء عن الالتجاء إلى الله سببًا للالتجاء ووسيلة إليه، ولهذا صحّ القصـد بهذا إلى الإنكار والتـعجب، وليس المراد بالسـببيـة ههنا هو الغرضـية، ليكون على منوال «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا» على ماتوهم)[2].

وهذا هو نفس المعنى فى دخول الفـاء فى قوله: «فإنه ملاقـيكم» وإن افترقت الفاءان فى كون هذه مشـبهة للجزائية، وتلك عاطفة، فلا مـجال لأن يقول أحد بزيادتها، وإن كـانت وضعت مـوضع الواو، لإبراز التناقض في الفكر والسلوك عند هؤلاء الذين ينفـرون من ذكـر الله فى السـراء ويهـرعون باللجـوء إليـه فى الضراء.

ولما كـانت الفاء تدل على المبـالغة، وتـأكيـد الربط بين المحكوم به والمحكوم عليه، والمسـارعة فى تنجـيز الحكم وعدم التـهاون فيـه، كثر دخـولها فى آيات القرآن، المتـضمنة أمـرًا بتنفيذ أحكـام الله تعالى، لتشـير إلى خطر مـا أمر به، ووجوب مسارعة أولى الأمر فى تطبيق حدود الله وشرائعه. وهذا هو سر دخولها في الحدود التى تتضمن أحكامًا شديدة، قـد تدفع المجاملة إلى التخاذل والتهاون فى تنفيذها، كمـا فى قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٨]. حيث اقتـرنت الفاء بالأمر بقطع الأيدى، لتنفخ فيه من روح الجد والمسارعة فى إقـامة ما حدّه الله، وتأكيد الالتزام به وعدم المراوغة فـيه، ما يقطع كل سبيل إلى دعوى الشـفقة والمماطلة،

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٢.

(٢) حاشية السعد ٢/ ٦٣٠.

والممالأة فى التطبيق، فليس هناك ما هو أرحم، ولا أعلم بما يصلح خلقه ممن خلق، لتتعاون الفاء مع أنفاس النصّ الملتهبة، من مثل قوله «جزاء بما كسبا» وقوله: «نكالاً من الله»، والتذييل المشحون بالغضب والتهديد «والله عزيز حكيم». وكأنه يقول: إن ثبتت سرقتهما فبادروا بإقامة حد الله تعالى عليهما دون تثاقل، وهذا هو سر دخول الفاء، الذى ضاع فى زحمة الجدل، والمعارك التى دارت في أروقة النحاة، ما بين مقدّر للمبتدأ خبرًا يترتب عليه ما بعد الفاء، كما هو مذهب سيبويه، أو القول بزيادة الفاء كما هو رأى الأخفش.

إن القرآن بهذه الفاء يحسم الدعاوى المتسترة وراء الرحمة المصطنعة، للافتيات على شرع الله فيما يزعمون من قسوة الحدود، من مثل ما نسمعه اليوم فى ضجيج دعاة حقوق الإنسان، الذين كانوا هم أول من أهدرها حين جعلوا دماء الكلاب أرفع قدرًا عندهم من دماء الإنسان في الشعوب المغلوبة على أمرها، فيقيمون الدنيا إذا ما اعتدى على حيوان فى بلادهم، ويضحكون ملء أفواههم، وهم يشاهدون دماء المسلمين تخضب الأرض في شتى بقاع العالم.

هذه النبرة الحادة، وتلك الفاء بما فيها من الحسم والإلزام هى التى نجدها فى قوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ [النور: ٢].

فمتى ثبتت جريمة الزنا على المرء -بعد أن أحاطها الله بكل الضمانات فى الإثبات حتى لا يؤخذ برىء بشبهة- فلا سبيل إلى التهاون والمماطلة فى تنفيذ حكم الله، ألا ترى كيف أعقب ذلك الحسم ووجوب المسارعة قولُه: «ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله» ذلك أن الحرص على إقامة شرع الله وحماية الأعراض، هو الذى يجب أن يكون مناط التعاطف، بل إن الحدَّ نفسه هو الرأفة عينها، وإن بدا مؤلما كمبضع الطبيب حين يتعين سبيلاً وحيدًا لاستئصال الداء، ثم انظر كيف يلهب القائمين على أمر الله، ويستثير حماسهم الدينى فى الإسراع بتنفيذ حدود الله، بقوله: «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر».

وللفاء حين تدخل على ما كان الشأن فيه أن يقع جوابًا للشرط بغيرها إشارات مدهشة، على ما نراه فى مشتبه النظم الحكيم، من مثل قوله تعالى فى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾ [الكهف: ٧١- ٧٤].

فقد كان المتوقع أن يقول: حتى إذا لقيا غلامًا قتله، قياسًا على قوله: «حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها» ليمضى النظم على نسق واحد فيما هو كالغاية الواحدة، لكن حين يفجأ السامع بهذا الاختلاف، وتسرى أنسام هذه الفاء فى عروقه، يدرك سر هذه المغايرة. ذلك أن التلازم بين الشرط والجزاء، وترتب الثانى على الأول ليس بلازم أن يتعقب فيه الجوابُ الشرط، لزوم الفاء فقد يقع الجواب بعد الشرط بزمن طويل، كما تقول: إن تسلم تدخل الجنة، فإن دخول الجنة لا يعقب الإسلام، فكان إلقاء الفاء الدالة على موالاة المعطوف للمعطوف عليه، مشعرًا بأن الخضر عليه السلام فى أمر السفينة انتظر حتى تحيَّن الفرصة فى اختفاء الأنظار، ليكون خرقها فى غيبة عن الأعين، حتى لا يحال بينه وبين تحقيق ما أراد، إذ لو شاهده أصحابها لمنعوه، أو لبادروا إلى إصلاح الخرق، فيفوت ما كان يرمى إليه، ثم جاء القول مفصولاً متولدًا عن الفعل، لا مسببًا عنه.

أما عطف قتل الغلام بالفاء، ففيه دلالة على المسارعة بقتله، وتركيز على ردّ فعل موسى بعد أن اعتذر فى الأولى، وكأن هذا الفعل الغريب من الخضر كان متوقّعًا بعد أن مهدت الحادثة الأولى له، فلم يكن ينتظر المتلقى المترقب لاختبار إرادة موسى وصبره، حين سمع «حتى إذا لقيا غلامًا» إلا فعلاً من جنس خرق السفينة، فهو أشد تلهفًا لمعرفة رد الفعل من الفعل نفسه، لذلك دخلت الفاء لتمرر القتل بسرعة، وصولاً إلى ما يرقبه المتلقى من تصرف موسى ورد فعله.

وهذا ما جـلاّه الألوسى، وأنقله كامـلاً لتكتمل الـفائدة: (وكان العطـف بالفاء التعـقيـبية، ليـفيـد أن القتل وقع عـقيب اللقاء مـن غير ريث، كـما يشـعر به الاعـتراض، إذ لو مـضى زمان بين اللقـاء والفـعل، أمكن نظرًا للأمور العـادية إطـلاع الخضـر فيـه من حـاله عـلى ما لـم يطلع عليه مـوسى عليه السلام، فلا يعترض عليه هذا الاعتـراض،ولا يضر فى هذا ادعاء أن الخرق أيضًا كذلك، لأن المقصود توجيه اختيار الفاء دون الواو أو ثم بعد توجيه اختيار أصل العطف، بأن ذلك يتأتى جعل الاعتراض عمدة، والحاصل أنه لما كان الاعتراض فى القصة الثانية مـعتنى بشأنه وأهم، جعل جـزاء لإذا الشرطية، وبعد أن تعـيّن للجزائية، لذلك لم يكن بدٌّ من جعل القتل من جملة الشـرط بالعطف، واختيرت الفاء من بين حروفـه ليفاد التـعقيب، ولما لم يكن الاعـتراض فى القصـة الأولى مثله فى الثانية جعل متسأنفًا، وجعل الخرق جزاء)[1].

(١) روح المعانى ١٥/ ٣٤٠.

obeikan.com